صراحة

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1977) السنة الثامنة

الخميس (2) كانون الاول 2010

الفنانة عفيفة إسكندر..
جوانب خفية من حياتها

10

عندما تحولت
عفيفة إسكندر إلى صحفية

15

عفيفة إسكندر

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

عفيفة إسكندر
حديث الذكريات

الحوار مع الفنانة عفيفة اسكندر يرجعنا الى الزمن الجميل، نتجول مع ذكرياتها في اربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن الماضي، زمن الصدق والابداع، الذي أنجب عمالقة الفن العراقي على جميع الصعد، اذ كانت عفيفة في أوج انوثتها وجمالها وشهرتها، وتميزت عن قريناتها باهتماماتها الثقافية وميولها المعرفية ماجعلها تفتح صالونا ادبيا لتكون قريبة من الشعراء والادباء وترتاده الى جانب الادباء الوجوه المعروفة آنذاك من الاطباء والمحامين والسياسيين وغيرهم.
وكان كبار المسؤولين في الدولة العراقية من ملوك وقادة ورؤساء ووزراء يطلبون ودها ويطربون لصوتها ويحضرون حفلاتها من دون حياء.

سامر المشعل

اللقاء بفنانة بمستوى عفيفة اسكندر يمثل لي فرصة ثمينة لانني سأقف عند تجربة ثرّة وتاريخ حافل بالابداع والذكريات وعندما ارتقينا سلالم العمارة ووصلنا الى الطابق السادس حيث تسكن عفيفة، وجدت ان الزمن قد فعل فعلته معها، وتركها فريسة امراض الشيخوخة بعدما سرق نضارتها وصحتها، تعاني من ساقها التي ما عادت تقوى على حملها، وشظف العيش واهمال المسؤولين لها.

دموع

الالم يعصرني وانا انظر الى ما آلت اليه الفنانة الكبيرة عفيفة اسكندر قلت لها: كان لك صالون ادبي يأتيه السياسيون والادباء في ذاك الوقت، الآن وبعد ان ذبل الجمال وراحت الشهرة، ما عاد احد يأتيك من السياسيين؟
. لا لم يأتِ احد من السياسيين.
× هل صحتك تسمح لك بالغناء؟
. لا ما عادت صحتي تتحمل وسبق ان ارادوني ان اغني واعتذرت.
سألتها عن موقف وزارة الثقافة ودائرة الفنون الموسيقية؟
فقالت مكررة انا حقي على الدولة، يجب ان تهتم بي وترعاني بعد ان افنيت عمري لخدمة العراق، فقط مفيد الجزائري وزير الثقافة السابق كان جيداً معي وخصص لي راتباً ، أما الآخرون فلا اعتقد انهم يعرفون عفيفة اسكندر.

مصطفى جواد

تقول عفيفة اسكندر: الذكريات صدى السنين، كان الدكتور، مصطفى جواد يقرأ القصيدة التي سأغنيها قبل ان اطلع امام الجمهور، ولا أغني قصيدة قبل ان يعطي موافقته عليها، كان مصطفى جواد وجعفر الخليلي مستشاريّ في كل شيء وانا قارئة للقرآن والانجيل والاثنان اضعهما قرب وسادتي عندما أنام.

وتضيف بأسى ولوعة لم أسئ الى بلدي في يوم من الايام.. الاعلامية العربية عبلة خوري قالت لي انت تتحدثين عن بلدك فقط، لم لا تتحدثين عن نفسك.

المخابرات أخذت بيتي

مخابرات النظام السابق اخذوا بيتي في العرصات لماذا؟
لانه كان مؤجراً الى السفارة الروسية ولم يعوضوني، حتى ان السفارة الروسية زعلوا عليّ وقالوا: لماذا لم تبيعيه لنا، كنا نشتريه.. وظنوا انني قد بعته بسعر مغر، لكنهم اخذوه ولم يعوضوني مضيت وتنازلت عنه لانه بكل الاحوال سوف يأخذونه.
اما بخصوص نوري السعيد رئيس الوزراء السابق، فتقول كان يحب المقام والجالغي البغدادي وكان يحضر كل يوم اثنين الى حفلات المقام، ويحضر حفلاتي.
وعن قصة اللحن الذي وضعه لها الموسيقار محمد عبد الوهاب فقالت: محمد عبد الوهاب اعطاني لحن اغنية ضمن فيلم الوردة البيضاء وحتى الآن اسمي موجود مع المطربة اسمهان و الاغنية هي (ياورد من يشتريك للحبيب يهدك) لحنها لي ولكن هو غناها بصوته، ولم أغنها لانها لا تريد ان تكون صدى لصوت غيرها اعتزازا بنفسها.

عبد السلام عارف حاربني

وتذكر الفنانة عفيفة اسكندر ان عبد السلام عارف كان يحاربها ويضيق عليها وحسب وصفها كان "شاد وياي " وتقول كان يتهمني بانني ادفن الشيوعيين في حديقة بيتي وتضيف: انا لا اضد احدا، كان عبد السلام يحاربني ويضيق علي ويقول لاهل الرمادي (رماد برأسكم).
لم تغن لقادة الثورة ولم تطلب منها الملكية ان تغني لها رغم انها كانت على صلة وثيقة بها، وانما كانت تغني في عيد الجيش وغنت لفيصل الثاني، ولم تغن لصدام او لحروبه، ولهذا اهملت وغيبت في العهد المباد وما زالت مغيبة، وتقول متعجبة: اعجب على الناس قالوا للملك لا نصدق ان نراك عريسا وبعد اسبوع واحد من هذا الكلام قتلوه!
قلت لها هل انت نادمة على هذا العمر الطويل الذي قضيته بالفن؟
– لست نادمة، انما ثقفت نفسي اكثر من اللازم حتى تلفت عينيّ، ونزل الماء فيها، وماعدت ارى فيها، وعن علاقة الثقافة بالمطرب فترى ان المطرب يجب ان يكون مثقفا حتى يتحدث عن بلده وفنه باسلوب جميل ومقنع، وتقول البارحة كنت استمع الى احد الفنانين يتحدث عبر التلفزيون وكان(خريط ، حسب وصفها) سألتها عن المستوى الثقافي للمطربين الجدد، فقالت: لا اريد ان احكم على احد، ولا اريد ان اذكر احداً بسوء.

شعر الجواهري لا يغنى

اما عن شعر الجواهري وهل كتب لها قصيدة معينة، فتقول: شعر الجواهري لا يغنى، ومن الصعب تلحينه، قرأت ديوان الجواهري، وما زال عندي حتى الان احتفظ به، وكانت عفيفة تبحث في بطون الدواوين الشعرية عن القصائد التي تناسبها وفي أحيان كثيرة تحور الشعر للتغزل ببغداد، ويعجبها شعر الاحنف وزهير ابن ابي سلمى اللذين غنت لهما الكثير من القصائد، اما الشعراء العراقيون فكانت تطرب لقصائد الشاعر الزهاوي الذي خصها بالعديد من القصائد.
واقرب الملحنين الى نفسها فهو الملحن احمد الخليل والملحن خزعل مهدي والملحن ياسين الشيخلي.

عشق بغداد

حبها لبغداد لا يوصف فكثيرا ما ضمنت اغنياتها هذا العشق، الذي تفضله على كل المدن والعواصم العربية والاجنبية، سبق وان طافت فنانتنا الكثير من المدن الجميلة، لكن حنينها زاد الابدي الى بغداد، وتذكر انها كانت مدعوة الى اميركا فغنت:
هزني الحنين لاهلي وشوق بيه
هيا بنا ياربع نمشي درب بغداد
وعادت مسرعة الى بغداد لتكون انطلاقتها نحو المجد والشهرة وخاتمة لايامها الحزينة تحت وطأة المرض والعوز والخوف.
سألتها ان كانت لها منافسات من مطربات جيلها فردت: لم تكن لي منافسة، ولم تكن المنافسة في حساباتنا، كانت العلاقات التي تجمعنا هي الطيبة والاخلاص، وتعتبر المطربة سليمة مراد معلمة لها، فكانت ترشدها وتعلمها وتعدل من لهجتها كون عفيفة اسكندر مصلاوية وكانت تسيطر عليها اللهجة المصلاوية، ولاتزال تحتفظ بفضلها وتقويمها، وتذكر إحدى المفارقات اللطيفة انها كانت تغني واحد الاشخاص الجالسين يطلب للمرة الرابعة ان اغني له، فشعرت ان هذا الشخص يقصد اهانتي فاخذت الكرسي لاضربه فتبين ان هذا الشخص اطرش، وتذكر ان سليمة مراد اعطتها درسا لم تنسه حتى الان فقالت لها: ((عليك ان تضعي فلتر في اذنك)، اي ان لا تنفعلي لاي كلام تسمعيه.
هكذا كانت العلاقات التي تربطها بمطربات ومطربي جيلها تسودها النصح والتوجيه والمحبة وكانت علاقتها طيبة بسليمة مراد ومنيرة الهوزوز وزكية جورج وناظم الغزالي وغيرهم

× في بداياتك الفنية كانت اجادتك في اداء المنلوجات رائعة.. هل بالامكان التحدث عن تلك البدايات؟
. كنت شابة مغناج في عام ١٩٣٥، وذكية جدا كما تقول والداتي لي دوما.. والتف حولي شخصيات مهمة وذات مكانة اجتماعية.. واغني لهم المنولوج لمدة (٥-٦) دقائق باللغة التركية والفرنسية والالمانية والانكليزية ويسمونني بالمونولوجست، وعملت مع الفنانة (منيرة الهوزوز) والفنانة (فخرية مشتت)..
× الاماكن التي تحيين بها حفلاتك في بداية دخولك الفن؟
. ظهرت لاول مرة على المسرح في

لم تغن لقادة الثورة ولم تطلب منها الملكية ان تغني لها رغم انها كانت على صلة وثيقة بها، وانما كانت تغني في عيد الجيش وغنت لفيصل الثاني، ولم تغن لصدام او لحروبه، ولهذا اهملت وغيبت في العهد المباد وما زالت مغيبة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

ملهى صغير بمدينة اربيل في اواسط الثلاثينيات وكانوا يسمونني (جابركلي) او المسدس سريع الطلقات... اتت هذه التسمية من صفة الغناء الذي اديته غناء سريعا نتيجة لصغر سني وعدم نضوج صوتي آنذاك.. واول اغنية غنيتها في اربيل (زنوبة.. آه من زنوبة عم بتعيط وتنادي خطفها البغدادي آه من زنوبة) غنيتها بعمر ٨ سنوات وغنيت في ارقى ملاهي العاصمة بغداد منها ملهى (الجواهري) و(الهلال) و(كباريه عبدالله) و(براديز).. علما ان الملاهي كانت سابقا افضل من النوادي الاجتماعية الموجودة حاليا..

× من هم ابرز الشعراء والادباء والساسة الذين كانوا من رواد مجلسك؟

. في الواقع كانت لي تقاليد خاصة في فني وحياتي، املك صالونا في منزلي الواقع في منطقة المسبح في الكرادة انيقا وفاخرا، ومجلسي يضم ابرز رجالات السياسة والادب والفن والثقافة في البلاد.. ومن ابرز الرجالات الذين كانوا يحرصون على حضور النقاشات من رجال الدولة في الحكم الملكي.. ومن خفق قلبه بحبي.. لقد كنت فنانة جميلة الطلعة.. ومنهم نوري سعيد رئيس الوزراء وفائق السامرائي عضو حزب الاستقلال وعضو مجلس الامة، والنائب حطاب الخضيري، واكرم احمد وحسين مردان وجعفر الخليلي وابراهيم علي والمحامي عباس البغدادي وخصوصا العلامة الدكتور مصطفى جواد مولع بفني وجمالي كان يحضر الى مجلسي باستمرار ويعجبني كثيرا ويصحبني كثيرا ويقبل يدي في نهاية كل اغنية فضلا عن الفنانين حقي الشبلي وعبدالله العزاوي ومحمود شوكة وصادق الازدي والمصور آمري سليم والمصور الراحل حازم باك.. واسماء كثيرة اخرى لا تحضرني..

× كيف كانوا ينظرون اليك من يحضر مجلسك من الاصدقاء؟

. كان هناك اكثر من صعلوك من صعاليك الادب والصحافة ينظرون الي كما لو كنت دمية من دمى الليل وقد تعرضت من جراء ذلك لتخرصات ولاقاويل متعددة انا في غنى عنها.. ولا استطيع ان افعل اي شيء في بعض الظروف التي مرت بي.. بسبب بعض المعجبين من العاملين في الحقل السياسي.. والبعض الاخر ارتبط بي بعلاقة صداقة مع عائلته..

× المعروف عنك انك تساعدين المحتاجين في ذلك الوقت؟

. نعم.. كنت انسانة طيبة القلب، بعضهم ينعتني بالتعجرف والتعالي.. واقسم لك باني كنت امرأة ممتلئة النفس بالاحاسيس، ينبض قلبي بكل ما هو انساني.. اساعد العديد من النسوة المحتاجات كن يأتين الى بيتي ويأخذن المساعدات وينصرفن...!!

× هل بامكانك التحدث عن ابرز اغنياتك التي كنت تقدمينها آنذاك.. وعن زياراتك خارج العراق؟

. لقد زرت العالم باجمعه، واقامتي كانت في باريس اكثر من اربع سنوات واكثر الملحنين الذين أتعامل معهما هما (احمد الخليل) والملحن خزعل مهدي وكثيرة الاغاني التي كنت اقدمها

في الواقع كانت لي تقاليد خاصة في فني وحياتي، املك صالونا في منزلي الواقع في منطقة المسبح في الكرادة انيقا وفاخرا، ومجلسي يضم ابرز رجالات السياسة والادب والفن والثقافة في البلاد.. ومن ابرز الرجالات الذين كانوا يحرصون على حضور النقاشات من رجال الدولة في الحكم الملكي..

الحظ لم تظهر الاغنية عند عرض الفيلم بسبب المخرج الذي حذفها لطول مدة العرض التي تجاوزت الساعتين.. ومثلت في افلام اخرى بلبنان وسوريا ومصر منها القاهرة. بغداد اخراج بدر خان وانتاج شركة اسماعيل شريف بالتعاون مع شركة اتحاد الفنانين المصريين ومثل فيه حقي الشبلي وابراهيم جلال وفخري الزبيدي ومديحة يسري وبشارة واكيم وكذلك فيلم (ليلى في العراق) انتاج ستوديو بغداد واخراج احمد كامل مرسي ومثل فيه الفنانون جعفر السعدي والراحل محمد سلمان والفنانة نورهان وعبدالله العزاوي وعرض الفيلم في سينما روكسي عام ١٩٤٩.

× كيف ترين الاغنية اليوم؟

. اداء المطرب للاغنية غير متزن وكلمات الاغنية ركيكة جدا..

× احتجابك خلال ثلاثين عاما، مع رفض اللقاء بوسائل الاعلام، هل هو سبب سياسي ام فني ام ماذا؟

. السبب تعرضي للاقاويل والاشاعات المتعددة التي سببتها لي وسائل الاعلام في عهد النظام السابق.. لقد عانيت كثيرا في حينها عندما القي القبض عليّ بتهمة انا بريئة منها.. ومنذ تلك اللحظة لم افتح بابي لاي انسان.. لكي اعيش بسلام..

× بعد هذه الرحلة ما الامنية التي تتمنين تحقيقها؟

. امنيتي ان اعمل صحفية في مجال المرأة.. اول من غنى في التلفزيون.

لعفيفة اسكندر الكثير من المناقب في مسيرة الفن العراقي فهي اول من غنى القصيدة عند تأسيس التلفزيون العراقي عام ١٩٥٦ واول من غنى في الاذاعة عام ١٩٣٦ واول اغنية لمطربة حين ظهرت الالوان في تلفزيون العراق عام ١٩٧٦ كانت لعفيفة ايضا..

مقتطفات

× غنت في عمر خمس سنوات، اول حفلة احيتها بعمر ٩ سنوات في اربيل.

× يونانية الاصل ولدت في الموصل وعاشت في بغداد.

× عبدالكريم قاسم كان يحب غناءها ويحترمها.

× اصدقاؤها ومحبوها يساعدونها ويتطوعون لخدمتها.

× سبق ان اعطيت هدايا شقق وبيوت في فينا ودول عديدة لكنها فضلت بغداد.

× الملك فيصل الاول كان من المعجبين بصوتها.

× والدتها كانت تعزف على اربع آلات موسيقية. وكانت تنصحها ان الغرور مقبرة الفنان.

× الدكتور العلامة مصطفى جواد كان مستشارها اللغوي وتقرأ له الشعر قبل ان تغنيه.

× لقبت بـ (منلوجست) من المجمع العربي للموسيقى كونها تجيد ألوان الغناء والمقامات العراقية.

هي (يا عاقد الحاجبين) و(ياسكري يا عسلي) و(اريد الله يبين حوبتي بيهم) و(قلب.. قلب) و(غبت عني فما الخبر) و(جاني الحلو.. لابس حلو صبحية العيد) و(نم وسادك صدري) وغيرها من الاغاني التي لا تحضرني اسماؤها وبلغ رصيدي من الاغاني خلال مسيرتي الفنية اكثر من (١٥٠٠) اغنية.

× عملت لمدة طويلة في مصر مع كبار الفنانين والفنانات، هل بالامكان التحدث عن تلك الزيارة؟

. عملت لمدة طويلة مع فرقة (بديعة مصابني) في مصر وهي اشهر راقصة وممثلة مصرية في الاربعينيات.. وكذلك عملت مع فرقة تحية كاريوكا.. وابرز مشاركاتي العربية هي التمثيل في فيلم (يوم سعيد) مع الفنان الراحل الكبير محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة وغنيت فيه لكن لسوء

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

عفيفة إسكندر ..
أول مطربة تغني القصيدة وتفتح صالونا للمثقفين

عفيفة اسكندر صوت غنائي قدم لأسماعنا اجمل الاغنيات واعذب الألحان طوال ما يقارب اربعين عاما واثرها مازال خالدا في الاذهان وذكراها لم تزل نضرة، رغم انها حبست صوتها عن جمهورها بإرادتها وحرمته من نعمة الاستمتاع به لاسباب غير معروفة ولا معقولة، ولا اجافي الحقيقة اذا قلت ان صوتها ما زال مطلوبا، وبحماس شديد من قبل الجمهور، برغم ان التلفزيون والاذاعة تنكرا لهذه الموهبة الكبيرةبفنها وشخصها.

ولأنها مطربة مثقفة ومحبة للشعر وتواقة للأدب كان مجلسها لا يخلو من المناظرات السياسية والشعرية والفنيةوالادبية حيث كان يضم كبار الادباء والسياسيين والفنانين منهم نوري السعيد وابنه صباح والوصي عبدالإله وتوفيق السويدي وسعيد قزاز وخليل كنة ،وفائق السامرائي وسواهم.

اول مطربة تغني القصيدة

المطربة عفيفة تعتبرلكثرة مطالعاتها للشعر اول مطربة عراقية غنت الشعر وقدمت ما يقارب ٦٠ قصيدةولم يعرف عن مطربة عراقية اخرى غنت هذا العدد الكبير من القصائد، لا سيما وان غناءالقصيدة في الغناء العراقي يكاد يكون محدودا جدا، وقد غنت لأساطين الشعراء مثل سناءالملك والبهاء زهير والشيخ علي الشرقي وطبقة الشعراءالمحدثين.

كانت تتكلم الانكليزية بطلاقة وتجيد التركيةواليونانية ايضا اضافة الى مقدرتها في العربية وهي أول من غنت القصيدة بين مطربات العراق.

أول أغنية

ان اول اغنية سجلتها للإذاعة في عام ١٩٣٧ هي (برهم يابرهوم يا بو الجديلة عذبت حالي وايدك طويلة) ثم اعقبتها بأغنيتها الثانية (زنوبة)بعدها اتجهت في الغناء الى قطبي التلحين العراقي (صالح الكويتي وداود الكويتي) واشتهرت بسرعة بسبب رصانة صوتها وعذوبته ووقفت بسرعة بمصاف اشهر مطربات ذلك العصركزكية جورج وسليمة مراد وسلطانة يوسف وصديقة الملاية وزهورحسين.

ذكريات سعاد الهرمزي

المرحوم الأستاذ (سعاد الهرمزي) الاذاعي المعروف الذي قدم للغناءالعراقي عدة دراسات وكتب فنية وكان أحد الذين كتبوا عن عفيفة في كتبه ومقالاته فقال عنها: عفيفة اسكندر لون فريد في الغناء لا يضاهيه أو يقترب منه أي لون آخر من ألوان الغناء العربي، وهو أيضا لون محير فلا تدري هل هو مونولوج أو غناء خفيف أو غناء عاطفي،،، أو هو كل ذلك معا!

أما صوتها وأداؤها فيستقلان بمواصفات مميزة وخصائص متفردة ويبعدان ابتعادا غير مألوف عن صوت وأداء أي مغنية في الوسط الغنائي العربي.

جابوكلي أو المسدس السريع الطلقات..

ومن الذكريات الأخرى التي ذكرها (الهرمزي) عن هذه الفنانة الرائدةانها – كما يقول – ظهرت للمرة الأولى على المسرح في ملهى صغير بمدينة اربيل في أوائل الثلاثينيات، وكانوا يسمونها في تلك الفترة بـ (جابوكلي) وتعني المسدس السريع الطلقات.

يذكر المرحوم الهرمزي ان هناك مجموعة كبيرة من خيرة رواد التلحين في القطر قدمت العديد من الأغنيات الجميلةالتي تشكل الآن ثروة كبيرة لتراثنا الغنائي، وأبرز من تعاملت معه الفنان «سميربغدادي» أو وديع خوندة ورضا علي وناظم نعيم وكريم بدر وأحمد الخليل وعباس جميل وياسين الراوي وخزعل مهدي وسواهم.

وحتى فرقتها الموسيقية التي تصاحبها في الغناء تختارها بدقة وعناية كي تتناسب مع صوتها وطريقتها في الأداء، وكما يقول (الهرمزي) ان حفلاتها كانت أسبوعية وتتضمن في كل حفلة (وصلتين) بحدود ساعة لكل وصلة غنائيةوفي بداياتها الأولى كانت فرقتها تتكون من عناصر فنية ثم تركوها وسافروا فبدأت بالتعاون مع مجموعة من الموسقيين أبرزهم سالم حسين وخضير الشبلي وجمال سري على آلةالقانون وكريم بدر وكريكور برصوميان وجوزيف حنا وجميل بشير على الكمان وخضر الياس على الناي وعلى العود كان الفنانان منير بشير وروحي الخماش كما كان الفنان حسين عبدالله يشارك في حفلاتها كضابط ايقاع

الحوادث والمواقف التي لا يعرفهاالكثيرون من الناس عن المطربة عفيفة اسكندر يقول الهرمزي: لها ذكرى مع موسيقارالأجيال الفنان محمد عبدالوهاب لا أظن انها ستنساها أبدا وهي مثلت معه في فيلم «يوم سعيد» إخراج «محمد كريم» ولحن لها أغنية غنتها في الفيلم عام ١٩٤٠ لكن عند عرض الفيلم لم تقدم الأغنية لأن المخرج اضطر الى حذفها مع مشاهد أخرى بعد اكتشافه ان الفيلم قد تجاوز الساعتين وهو وقت طويل ويمله مشاهدو السينما.

من ذكريات الصحافي صادق الازدي

تحدث عن لقائه بعفيفة اسكندر في

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

استانبول فقال: «كنت أسكن في أحد فنادق استانبول - في سفرةسياحية، وبعد ان تناولت طعام الغداء اخذت قسطاً من النوم،، لكني قفزت من فراشي وانافي عز النوم على اثر رنين الهاتف وعندما رفعت السماعة وجدت ان الفنانة عفيفة هي التي تتحدث على الطرف الآخر فتملكني العجب، اذ انها كيف عرفت بوجودي هنا! فتبين انها نزلت في نفس الفندق مصادفة وسألت صاحب الفندق عن اسماء العراقيين من النزلاء فاختارت اسمي من بينهم واتصلت بي والتقينا وتحادثنا - وطلبت ان تسهر معي واتصلت بأحد معارفها ايضاً في استانبول هو وعائلته كي يمروا علينا لنسهر معا - وجاءواالينا وكان أحد كبار رجال الاعمال ومعه ابنته وسيدة مهيبة الطلعة هي زوجة احد اصحاب الفخامة رؤساء الوزارات العراقية وتعرفت عليهم،،، وألحوا من أجل مرافقتهم - لكني اعتذرت اليهم بلطف - لأني لم أعتد السهر مع أصحاب الملايين والفخامات.

ومن هو هذا الرجل وتلك السيدة بهية الطلعة؟ يقول الازدي: «الرجل كان سليمان باشا صاحب معامل فتاح باشا اما السيدة فهي نعيمة العسكري زوجة نوري السعيد رئيس الوزراءآنذاك .

تحت تهديد السلاح!!!!

تميزت حقبة الثلاثينيات بانها حفلت باحداث جسيمة مثل دخول العراق الى عصبة الامم ثم وقوع انقلاب بكر صدقي ضد وزارة طه الهاشمي واستيزار حكمت سليمان،،، وحصل في تلك الايام ايضا ان منتديات وملاهي بغداد عرفت المطربة الحسناء عفيفة اسكندر واشتهرت في تلك الاوساط وترددامها بين كبار مسؤولي ذلك العهد وفي مقدمهم علي الحجازي مدير الشرطة العام وهوضابط من بلاد نجد والحجاز جاء مع عائلة الملك فيصل الاول وسكن العراق وحصل فيها علىعدة مناصب وكان يرتبط بصلة وثيقة بالوصي على عرش العراق عبدالاله، وقد ارتبط الحجازي بالمطربة عفيفة بعلاقات وثيقة.

وكان الحجازي يحضر معظم حفلات عفيفة وفي جلساته الخاصة كان يلتقي بها بحضور صاحب سينما الشعب في ادارة السينما وهو من اليهود العراقيين،،، وفي تلك الجلسة بدأ يداعب عفيفة وقال لها انه على استعدادلتنفيذ كل طلباتها وهنا اشتكت عفيفة له من تصرفات اليهودي صاحب السينما الذي غمطلها حقا وهي تطالبه باجورها كاملة،،، فثار الحجازي رغم انه صديقه، وانتزع مسدسه وهدد صاحب السينما بالقتل اذا لم يدفع ٥٠٠ دينار حالا لعفيفة ،،، وامام هذا التهديداستسلم اليهودي صاغرا ودفع المبلغ كاملا «وعين تضحك وعين تبكي» كما يقول المثل!!

قصة حب فاشلة مع الأديب عبد المجيد لطفي

هذه القصة كتبها رجل استجاب لمشاعره ولم يتهيب من أحد في الافصاح عنها وتخطى الخوف ليظفر بتلك الراحة التي لا يشعر بها غير الذين يستجيبون لعواطفهم.

هذا الرجل هو الاديب الكبير عبدالمجيد لطفي الذي أحب الفنانة الكبيرةعفيفة حبا لا حدود له وكما يقولون في حياة كل رجل مهما كانت منزلته وعقليته فراغ لاتملؤه الا امرأة نمت ونشأت في خيالة واحبها عقله الباطني وتلك المرأة كما يقول لطفي هي عفيفة اسكندر التي حركت الاوتار السبعة في قلبه دفعة واحدة، وذلك منذ أول يوم جاء فيه من كركوك الى بغداد في اجازة قصيرة وتعرف على عفيفة في الملهى الذي تغني فيه ومن يومها وجد ان هناك شيئا يجذبه الى بغداد ويبعده عن بلدته كركوك.

الاديب عبدالمجيد كتب كتيبا صغير الحجم عن عفيفة اسكندر ضمنه حبه الاثير لها واعترافاته الجريئة وصدر في عام ١٩٥٣ بعنوان «عفيفة،،، خواطر ادبية» من شركة النشر والطباعة العراقية والمدورة في بغداد وبعد انتهاء الزيارة الى بغداد ورؤية عفيفة توقع لطفي ان يكون الامر ليس حبا بل هو اعجاب وربما ينتهي لكنه في كركوك اكتشف ان عفيفة باقيةفي القلب وتهز اوتاره السبعة لا يمكن ان يمسحها من خياله، كان في كركوك يوصي اصحابه بأن يجلبوا له صور عفيفة من بغداد وعندما تصل الصور يتحفز ليعود الى بغداد مشتاقاالى تلك «البنية اليافعة كالاقحوانة» وكان قلبه وهو في مكتبه وبين اوراقه يضطرب اضطرابا «شديدا كلما ارتفع لها صوت مؤنق رجراج!

كان لطفي يريد الابتعاد عن طريقها لكن الحب كان يمنعه ويغلق عليه كل منافذ الدنيا لأن عفيفة على حد تعبيره (كالشمعة - شمعة ساطعة تضيء الظلمات أمام اوراق كثيرة فتلقي بالبهجة والمرح في صدورالمكروبين والتائهين)أما أنا (يقول لطفي): «فقد كنت في ظل الشمعة في الظل القريب منها أتلوى بالحرارة وأنا في الظلام»!

حداد عتيق

يقول لطفي عن أول يوم تحدث فيه مع عفيفة لا يمكن ان انسى تلك الليلة فبالقاعة الصيفية حيث كانت تموج وهي تترنح هابطة من المسرح بجمرة الزهو والجمال فقطع احدهم الطريق عليها فصافحته وصافحتنا جميعا وعندما وصلت اليّ قالوا لها انه عبدالمجيد لطفي الرجل الذي تغنى بك عن بعد! فأمسكت بيدي المرتشعة التي تضطرب بجميع مشاعري

الاديب عبدالمجيد كتب كتيبا صغير الحجم عن عفيفة اسكندر ضمنه حبه الاثير لها واعترافاته الجريئة وصدر في عام 1953 بعنوان «عفيفة،،، خواطر ادبية» من شركة النشر والطباعة العراقية والمدورة في بغداد وبعد انتهاء الزيارة الى بغداد ورؤية عفيفة توقع لطفي ان يكون الامر ليس حبا بل هو اعجاب

وقالت وهي ترسم ابتسامة غضة وجميلة على شفتيها أأنت عبدالمجيد؟ انك مثل حداد عتيق وارسلتها ضحكة ناعمة!! ثم تكررت اللقاءات بين لطفي وعفيفة وفي كل مرة يجدشيئا مبهما بمزيج من اللهفة والخوف وبشيء غريب على نفسه!

ويقول لطفي لقد كتبت رسائل عدة لعفيفة مضمنة بعواطف الحب وكنت اظن ان رسائلي ستكون ذات قيمة لديها حتى علمت انها لا تحتفظ بالرسائل اما الرسائل التي تتضمن القصائد فهي لا تأخذ بها لتغنيها لأنها صديقة المتنبي والبهاء زهير وسناء الملك وتختار من دواوينهم اجمل القصائد.

بعيدة عن النقد السياسي

ذات مرة يقول لطفي قلت لعفيفة ان بعض اغانيك فيها سخف، فردت عليه: «نعم اعرف ذلك لكن ما حيلتي فإن مايصلني واغنيه هو افضل الموجود كذلك الحانها وهي تعتقد ان من تتعامل معه يجب ان يرتقي بفنه اليها مع انها تدفع بسخاء للشعراء والملحنين، كانت عفيفة تبعد النقدالسياسي عن اغانيها حتى لا تتعرض الى تجريح أحد الساسة ممن كانوا يحضرون الى مجلسهاالادبي في منزلها امثال نوري السعيد وبقية وزرائه،،، وهنا يطالب لطفي عفيفة بأن تكون اغانيها ذات نقد هادئ وبناء وذات قوة للدفاع عن المجتمع.

الحب أكذوبة

ذات مرة سألها: ما تعريفك للحب: فقالت: انه اكذوبة المبطرين؟فلم يبق للحب من شيء مقدس لأنه الآن تزييف مكشوف لماضي الحب وما عرف عنه من قدسيةوتضحية فرد عليها ان في هذا بعض الغلو والخيبة لأني اعرف الحب على غير ما تعرفين! ويبدو ان هذه النظرة السوداوية للحب سببها ان الناس المحيطين بها هم الذين جعلوهاتفهم الحب على هذا النحو، لذلك يقول لطفي حين تقدمت اليها قلت لها اني لا اطمع بحب منك يا عفيفة لكنني اناشدك الصداقة وقد فرحت جدا «لأنها قبلت ذلك بوعي».

اللقاء الاخير

بعد ان يئس لطفي من حب عفيفةوفهم انها لا تجاريه في ذلك بل تريده صديقا عزيزا والصداقة اكثر عمقا وبقاء من الحب! لذلك قرر لطفي توديعها ويذكر كيف انها اقتطفت من حديقتها زهرة صفراء واعطته اياها لتكون علامة لتلك الصداقة المتينة لاسيما ان الوردة الصفراء تختزن عطرا افضل واعمق من الزهور الحمر والبيض فكأنه يقول ان عطرها سيبقى معي الى الابد! وكان وداعا رومانسيا كما بدأ لقاء رومانسيا.

لا يأخذك الطرب يا باشا

وكانت عفيفة ظريفة جدا وصاحبة نكتة وهي الوحيدة من المطربات التي يسمح لها بقول النكتةوالطرافة مع رجال الحكومة الملكية، اذكر مرة قال لها نوري السعيد بعد وصلة غنائية،يا عيني، فأجابته لا يأخذك الطرب كثيرا يا باشا!

قصة حب مختلقة

وذكر الاستاذ زهير احمد القيسي عن قصة الحب المختلقة التي كان بطلهاالشاعر حسين مردان فقال: «عندما عاد حسين مردان من بعقوبة الى بغداد شابا متشردا بوهيميا ما بين عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ خالي الوفاض إلا من موهبته، وجد ان طريق الشهرةبواسطة الشعر مسدود امامه فصمم على ان يشق طريقه في الحياة عبر نمط جديد من الشعرلا يخلو من جرأة في تناول قضايا المرأة والجنس اضافة الى احاطة نفسه بهالة من القصص والحكايات الغريبة والعجيبة .

كنت انا شاهد عيان وزميلا ملازما لأدباء تلك الفترة ومن بينهم حسين مردان وقد استطاع عبدالمجيد الونداوي وغائب طعمة فرمان ان يجدا له غرفة صغيرة تؤويه في مقر جريدة الاهالي (في محلة البقجة في الميدان الذي صار الآن المركز الثقافي في ظهر وزارة الدفاع)، وكان حسين يلتقي بهذين الصديقين وبعض الاصدقاء الباقين من الادباء والمتأدبين في كازينو بلقيس في شارع ابي نواس ويبدو انه دعي ذات مرة الى الملهى الذي كانت تغني فيه عفيفة اسكندر فعشقها ومن ذاالذي لا يعشق عفيفة في تلك الايام وهي على ما هي عليه من جمال وشهرة وحلاوة صوت؟،وربما استطاع حسين ان يذهب الى بيت عفيفة مرة واحدة من خلال دعوة بعض اصدقائهالمقربين اليها وينتهي كل شيء على مسرح الواقع، اما الخيال فقد انشأ حسين مردان عفيفة اسكندر قصة حب خارقة للمألوف وراح يرويها للناس والاصدقاء بكل جدية، ولااعتقد ان هناك من كان يصدق بتلك الحكايات الخرافية، غير ان الجميع كانوا يحبون حسين مردان ويأنسون الى احاديثه حتى الكاذب منها، ان من ارخ لهذه الحادثة او القصةالمختلقة هو الكاتب العراقي الراحل غائب طعمة فرمان في روايته «خمسة اصوات» التي مثلت سينمائيا في العراق بفيلم عنوانه «المنعطف» مثل دور حسين مردان في الفيلم الفنان يوسف العاني كما قدمتها فرقة ابراهيم جلال المسرحية في مسرحية بعنوان (خمسةاصوات) مثل فيها دور حسين مردان الفنان عبدالخالق المختار واخرجها الفنان محمود ابوالعباس، وفي هذه الرواية يروي فرمان بلسان حسين مردان ان قصة الف ليلة وليلة عبرغرامه بعفيفة اسكندر.

حمام وردي معطر !!!

كان المرحوم حسين مردان يروي يوما كيف ذهب الى بيت عفيفة واخذ حماما ورديا معطرا ثم جاءت إليه بعشاء مؤلف من اطعمة نسمع بها ولا نراها، وكيف ارتدى بيجامة حريرية واستلقى على الفراش الوثير وكيف شرب عصير البرتقال قبل العشاء، وكان حسين مردان يروي هذه الحكاية وثيابه مغفرة بالتراب ولم يحلق ذقنة ولم يستحم قبل شهر ولا يملك ثمن سيكارةوتفوح منه رائحة العرق!

مجلة فنون اذار
1982

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

ذكريات في الفن.. عفيفة إسكندر

عادل أبو شنب

قرأت أن المطربة العراقية المشهورة التي ارست دعائم الأغنية البغدادية كما يقول النقاد العراقيون- قد ولدت في أوائل عشرينيات القرن الماضي في مدينة الموصل في أسرة فنية فأبوها كان عازفا وكذلك أمها وأنها عاشت في هذا الجو فقد جاءت بديلة عن أمها - عندما مرضت هذه - وغنت أول مرة في مدينة أربيل ومن جملة ماغنت (يا جارة الوادي) لمحمد عبد الوهاب وقد تزوجت من رجل اسمه اسكندر فعرفت باسم عفيفة اسكندر وكانت في الحادية عشرة من العمر في حين كان زوجها في الخمسين!

كان للزوج اسكندر الفضل في إبرازها كمغنية جيدة في عام ١٩٣٥ م جاءت بغداد لأول مرة وراحت تغني على مسرح الهلال ثم سافرت إلى القاهرة عام ١٩٣٨م وغنت لأول مرة من اذاعة القاهرة أغنية (إن كان حبيبك من عسل) وهي من ألحان محمود الشريف ثم عادت إلى بغداد لتعتني بأمها المريضة وصعدت بذلك إلى المرتبة الأولى كأحسن مطربة عراقية وسجلت عددا من الأغاني وبلغت الذروة عندما اشتركت في فيلم (ليلى في العراق) عام ١٩٥٥م.

وتتحدث عفيفة اسكندر عن والدتها فتقول: إنها عازفة ماهرة وتستطيع أن تعزف على أربع آلات موسيقية هي: البيانو - والكمان- والعود كما أن والدي كان يتقن العزف أيضا.

وتضيف إن والدتي هي التي حمستني على سلوك طريق الغناء ولولاها لبقيت كباقي النسوة.

ولعل أشهر أغانيها على الاطلاق الأغنية التي عرفتنا بها هنا في سوريا وهي أغنية (عمي يا بياع الورد) التي قد تكون لغيرها تقول الأغنية في مطلعها:

عمي يا بياع الورد قولي الورد فين

وقد راقت لنا هذه الأغنية في شبابنا حتى صرنا نرددها بيننا وبين أنفسنا لأنها كانت عراقية النفس تحمل الكلام العراقي المحبب:

عمي يا بياع الورد قولي الورد فين

بلاش تدوس على الورد ونساوي خلة خلة

إن ذكرياتي عن المطربين والمطربات العرب كثيرة وليست ذكرى عفيفة اسكندر وحدها الخاضعة لديكتاتورية ذاكرتي!

جريدة تشرين السورية

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

عفيفة إسكندر .. الفنانة المثقفة التي التزمت الصمت لأكثر من ثلاثين سنة !!

د. سيّار الجميل

هذه الفنانة العراقية المثقفة القديرة التي طارت شهرتها في عراق القرن العشرين ، وهي اديبة من اللواتي اشتهرن بحفظ مئات الابيات الشعرية .. وعفيفة ولدت في الموصل وكانت ابنة للفنانة الموصلية الشهيرة ماريكة التي كانت تمتاز بصوتها الصدّاح واغنياتها ورقصاتها التي تؤديها في حفلات خاصة ، وأبوها اسكندر سمعت منذ زمن بعيد انه ارمني وتربّت عفيفة في طفولتها وبواكير شبابها في مدينة الموصل ، ثم انتقلت الى بغداد لتقطن فيها عندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها .. وبدأت تغني في النوادي والمسارح والكاباريهات وازدادت ثقافتها مع مضي الزمن خصوصا وقد كان لها مجلس يؤمه العديد من الادباء والشعراء والفنانين والمثقفين العراقيين .. واصبح لها شأن في المجتمع البغدادي اذ توثقت علاقتها بالعديد من العائلات البغدادية والاسر العليا في المجتمع وخصوصا ابان العهد الملكي وحتى عام ١٩٦٨ ، اذ انها اعتزلت عن الفن اعتزالا تاما ، واحتجبت معتكفة في بيتها بعد وصول البعثيين الى السلطة ، فهي وان لم تكن الوحيدة التي لم تمدح البعث والبكر وصدام كما فعل الآخرون ، ولكنها استطاعت ان تخفي معارضتها السياسية من خلال صمتها الطويل على مدى اكثر من ٣٥ سنة .

لقد بقيت تعيش وحدها مع كلبها الوفي في بيتها الجميل ببغداد مع ابقائها علاقتها القديمة باصدقائها وصديقاتها القدامى ، وكانت تذهب صباحا لتشتري حوائجها ثم تقفل راجعة الى بيتها .. وقد سمعت ان بصرها قد قل في السنوات الاخيرة . ولعل أقوى صدمة نالتها عفيفة كانت في فجر ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ عندما سقط النظام الملكي في العراق ، فاعتبرت ذلك اليوم اسود في تاريخ العراق وبكت على اولئك الرجال الذين فارقوا الحياة اذ غنّت اغنيتها الشهيرة : " حرقت الروح لمن فارقتهم .. بكيت ومن دموعي غرقتهم " ! لقد بقيت عفيفة ملتصقة بتراب العراق ولم تغادره وبقيت صامتة ولم تظهر للعلن الا مؤخرا عند تكريم الرواد لمناسبة مرور ٦٨ سنة على تأسيس الاذاعة العراقية ، فعرف الناس انها لم تزل على قيد الحياة ، ولم تزل مغروسة في بغداد . ظهرت لتقول : ها انا ذا اعلن عن وجودي بعد صمت قاس تحوّل خلاله فن الغناء العراقي الى سيرك فيه كل الالوان المبهرجة والبلادة والمجانية والسماجة وخليط من البلايا المضحكة !

اغاني عفيفة اسكندر

تميزت اغنياتها بنكهة رائعة وكانت تصدر من واقع بيئة بغداد الحضرية ، وهي تمتاز بروحها العراقية وفنتازيتها الراقصة المستمدة من طفولتها الموصلية .. كانت تراعي في اختياراتها من الكلمات والقصائد والموشحات التي كانت تعشقها عشقا خاصا . رأيتها مرة في طفولتي ببغداد في احدى بيوتات قريباتي وهي تقرأ شعرا في حفل خاص بحديقة غنّاء وكانت رائعة الاداء وتدرك معنى مخارج الحروف .. وهي تدرك عناصر الجذب من قبل القنان للاخرين وكيف ترسم الابتسامة على الوجه وكيف تحرك ملامحها من اتجاه لآخر . ولقد تعاملت مع ملحنين عراقيين كانوا يحترمونها ويأخذون برأيها وكانت تحترم عملها وتحب جمهورها وتنعش حفلاتها .. ولعل اهم ما كانت تعتز به صديقاتها القديمات من سيدات مجتمع بغداد . ولم نعرف لعفيفة اسكندر غناء لعهد أو ذماً لآخر، سوى للوعة التي تتركها ازمان وراء ازمان ، ولم نسمع الوطن إلا في بحر المحبة الفائض الذي يتدفق من كلمات أغنياتها.

لقد واصلت عفيفة حضورها متعدد المستويات في الأغنية العراقية، اذ كانت لها "كاريزما" من نوع خاص، وكانت قد ارتبطت بالنخبة المثقفة والسياسية على الأغلب، قبل أن تغيب، معلنة اعتزالاً غنائياً معروف الأسباب، وهي ترى تحول جميع المطربات والمطربين العراقيين الذين أتوا من بعدها إلى كورس موحد، يلهج بصفات الدكتاتور. قبل أن تغيب غيبتها تلك كانت عفيفة قد تركت عهداً من الشجن الآخر الذي لم يعد متاحاً منذ غيابها.

ولعلّها الوحيدة من بين جميع المطربين العراقيين على الإطلاق، ممن بقوا داخل العراق، التي لم تظهر لا في غناء فردي ولا في كورس جماعي كي تمجد الحروب، على إيقاع مقتل العراقيين الذين لم يؤبنهم أحد، كأنها كانت عفيفة الصوت، ووفية لمن أحبّها ممن ذهبوا ومن تبقوا على ارض الرافدين .

مصادر العطاء

غنت عفيفة اسكندر اللون البغدادي، الذي يبدو غائباً تماما اليوم ، عن مجمل الغناء العراقي، وقد احترمت نفسها مبتعدة عن تأدية ألوان المقام العراقي، ولم تعرف أطوار الغناء الجنوبي، وكثير من المختصين لا يعرفون سر ذلك الوضوح في أغانيها ذات اللحن السريع الذي ينظر إليه راهناً بمثابة نقلة نوعية في طبيعة الأغنية العراقية التي كانت سائدة آنذاك، فأقول انها قد نقلت اللون الغنائي السائد في الموصل ومناطق الشمال الى بغداد .. وعليه ، فهي ليست تأثيرات الأدوار المصرية، بل تلك المواويل التي تنحدر أطوارها من جغرافية الموصل الشمالية . لقد تضمنت أغانيها الأولى نكهة الشارع البغدادي، بعباراته الشائعة وبلاغته الخاصة وبنحته للجملة من لهجة موصلية صعبة باحالاتها وامالاتها لا يمكن أن تتداخل معها ابدا لهجات المناطق الأخرى؛ بيد أن أجواء بغداد المخملية في عقدي الأربعينات والخمسينات قد استوعبتها وحملت مزاجا متمدنا لا يكاد يفصل بين ما تفرزه الحياة، وما يستعيره الفن من تلك الإفرازات، فيتدثر بإيحاءاتها الثرية، ما أمكن له أن يتدثر دون أن يفقد تلك الصلة.

لقد شكّلت عفيفة ريادة من نوع ما في الاغنية العراقية المتمدنة التي تخلو من لواعج الجنوب او نواح الريف او بكائيات المقام .. وكأنها تمثل رمز زمن ذهبي بكل خصبه الابداعي العراقي في الشعر والقصة والفنون التشكيلية ونجوم المسرح والغناء، فالمجتمع المدني العراقي بدأت ملامحه تتشكل للتو، وجاء ظهور التجمعات الثقافية: جماعة بغداد للفن التشكيلي، والفرق المسرحية الأهلية كفرقة الزبانية، مترافقاً مع ثورة الشعر الحديث، وحركة الرواد، ومع التجديد في القصة .. وعصرنة الحياة التي يبدو من الصعب تكرارها ثانية في نسيج شرائح المجتمع العراقي ونخبه، حيث لم تكن المسافة واضحة بين الملهى والمقهى، والصالة والصالون، فكلها كانت منتدى للحوار والحياة معاً.

عفيفة وغناء الشعر

ان علاقتها المتميزة مع أهل الأدب ليست سوى انعكاس طبيعي لعلاقتها بالأدب نفسه، فهي مغنية تكاد تنتمي لمغنيات العصر العباسي، في ما يتعلق بالثقافة الأدبية، رغم السمة العصرية التي طبعت تجربتها وسلوكها بطابع خاص، والبيئة التي حققت صلة نموذجية معها؛ فغنت قصائد رقيقة بدت متناسبة مع تجربتها ودللت على عمق اختياراتها من حيث اهتمامها بالجملة والمفردة، فغنت لظرفاء بغداد كالعباس بن الأحنف في "أيا من وجهه قمر" وللعشاق الأندلسيين، كالخطيب الأندلسي الأعمى في "قيل لي قد تبدلا". لربما لم يسمع كثير من العراقيين قصيدة "يا عاقد الحاجبين" لبشارة الخوري، من فيروز كما سمعوها من عفيفة اسكندر، وربما بعدها، الأولية هنا غير ذات أهمية، صحيح أن تلك القصيدة لدى المغنية البغدادية تحولت إلى ما يشبه الطقطوقة، لكن الصحيح أيضاً أن البغادة عندما يسمعون جملة "قتلتني مرتين" في الأغنية بلحن مختلف عن لحن الرحابنة الذائع عربياً، فهم يسمعونها بصرخة وانتفاضة من "عفاوي" لا بهمس ونبرة انسيابية وشفيفة في صوت السيدة فيروز اللبنانية الشهيرة .

السينما

لقد اشتركت الفنانة عفيفة اسكندر في فيلمين سينمائيين في نهاية الأربعينات، كان الأول " ليلى في العراق " صناعة مشتركة بإخراج مصري، ومشاركة في البطولة للفنان اللبناني محمد سلمان الذي نجح في تجربة سابقة في فيلم مماثل مع المطربة صباح ، وقد عزز مسيرة السينما في العراق بتجربة في زمن يحتاجها. أما فيلمها الثاني "القاهرة بغداد"، الذي أخرجه المصري أحمد بدرخان، فهو آخر عهد لها مع السينما.

وأخيرا

منذ احتجابها انحسرت الاصوات النسوية العراقية عن الغناء ، وبقيت أصداء الأجيال القديمة من المغنيات هي المتداولة حتى يومنا هذا . ان عفيفة في الواقع هي الجسر الموصّل بين أهم جيلين من مغنيات بغداد في القرن العشرين : جيل مثلته: سليمة مراد ومنيرة الهوزوز وزكية جورج وصديقة الملاية ، وجيل مثلته مائدة نزهت وزهور حسين ووحيدة خليل ولميعة توفيق ، انتهى الجيل الأول بالرحيل، بينما غيب الموت والصمت الجيل التالي، لكنه ظهور سيبدو ممزوجاً بالرعب مما يحدث على الأغلب. إنها صورة العراق الغائبة والمطمورة تحت ركام القمع والحصار والحروب، تنهض اليوم مجدداً لكنها لا تكاد تصدق، إنه العراق مرة أخرى! لكن أجمل ما في هذا الظهور إن عفيفة اسكندر عادت بعد ربع قرن من الاحتجاب وهي تحمل معنى أن ينطبق الاسم على المسمّى.

فصلة من كتاب زعماء ومثقفون : ذاكرة مؤرخ للدكتور سيار الجميل

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

عفيفة إسكندر وعبد المجيد لطفي

((عفيفة))

خـــواطـــر أدبـــيـــة

مقدمة

كتيب القاص الراحل عبد المجيد لطفي عن الفنانة الكبيرة عفيفة اسكندر الذي نشره عام ١٩٥٣ تحت عنوان (عفيفة...خواطر ادبية) حيث تجد فيه تلك العاطفة الصادقة من فنان مبدع لإنسانة مبدعة فتحت صالونها الادبي لمجموعة خيرة من الشعراء والمبدعين في منتصف القرن الماضي!

المحرر

عبد المجيد لطفي

يشعر المرء حين تتفتح أمامه آفاق الحياة الكبيرة النشيطة الملونة في الغرب انه في قفص وان عليه ان يرى تلك الالوان الجديدة من الحياة التي لم يألفها وتتوق نفسه الى رؤية افراح الاخرين ومسراتهم ومشاكلهم عن طريق معاشرتهم والاختلاط بهم ومواكبة نظم حياتهم وتقاليدهم حيث هي ...

ان الافلام السينمائية التي تعكس بعض صور الغرب ومظاهر حياته ونشاطه والمجلات المصورة والمقالات الكثيرة الممجدة للديمقراطية والحرية بمعانيهما الواسعة- كل ذلك يلهب الذهن الى زيارة الغرب والتطلع إلى الحياة الجديدة هناك...

ويبدو لي ان عفيفة شعرت مثل هذا الشعور حين فكرت في الذهاب الى اوروبا فذهبت اليها، الى مدنها الرئيسة اكثر من مرة.. ولم تكتف باوروبا فزارت امريكا التي كانت الحياة المادية الباذخة فيها من الحوافز التي تدعو كل انسان الى زيارتها ما استطاع الى ذلك سبيلاً..

فلما عادت عفيفة من سفراتها وجولاتها في امريكا واوروبا اصيبت الى ردح من الزمن بشيء من رد الفعل الذي يجعل الانسان ينكمش قليلاً ويحدد من غلواء كبريائه .. والحقيقة ان تلك الجولات قد افادت عفيفة فائدة كبيرة اذ ارتها الحياة بمعانيها الجديدة..

ولابد من انها اعجبت- لا بالحضارة التي تبنى وتخرب وحسب، وانما باناس تلك البلدان، أولئك الذين ينشئون للعالم كل ما يعود عليه بالنفع والضرر معاً...

واعجبت بالجمال حيث تخلقه الرياضة وتنعشه الثقافة العامة وروح المواطنة الكريمة عند جميع النساء. وفي الغرب الى جانب مواطن القبح توجد مواطن كثيرة للفتنة . فالجمال الانثوي هناك كما نعرف، كالألواح الخالدة تنتقل من جيل الى جيل لتزداد قيمة ورونقاً!..

ولا ادري مدى اتصالها بالحياة الفنية في اوروبا لاسيما في فرنسا وفي باريس بصورة خاصة حيث زارتها أكثر من مرة على انني اعرف انها كانت متحمسة لزيارة اوكار الوجوديين أولئك الذين ألهبوا خيالها بتصرفاتهم الشاذة وفلسفتهم الضاحكة الساخرة التي لا رابط لها من تقاليد الإنسانية وتراثها الأخلاقي.

على انني واثق ان عفيفة لفترة من الزمن ادركت ان الجمال ليس هو كل ما يجب ان تفتخر به المرأة او الفنانة فان خوارق الآيات من الجمال الإنساني ارق وارشق الفتيات هناك يتزاحمن من اجل صحبة رجل من عامة الناس في سبيل عشاء أوقضاء ليلة في غرفته..

فلقد كان الجمال- في السنين التي تلت الحرب- كما نعلم جميعاً- ارخص شيء ممكن نواله بثمن في تلك البلاد بسهولة .. غاية في السهولة!

فهل جرتها اعني- هل أذعنت عفيفة- لحين من الزمن لفلسفة الوجوديين ؟ وهل رأت فيها خلاصاً ولو عن طريق المخادعة من الآلام والهموم والعودة الى الطبيعة التي لا تعترف بقيود الناس وما في أنظمتهم من؟.

على انني اعرف ان الوجودية ذات إغراء شديد كفلسفة تبرر للناس تصرفاتهم الشاذة او التصرفات التي تلجئهم ظروفهم اليها وان كل إنسان ضجر من حياته ومتبرم بها يستطيع ان يتخذ منها وكراً يلوذ به بين الفينة والأخرى من دون ان يشعر بحرج تجاه نفسه !

وكانت عفيفة قبل ان يتسع افق الحياة وفهم معانيها واشتباكات مصالحها في ذهنها، كانت قليلة الاحتفاء بالأدب وبالصحافة حتى رأت ان الادب كفن انساني يمجد الجمال والفضيلة ويدعو الى الانسانية الموحدة في نظام رحب والى الاخوة، شيء لازم للفنانة فبدأت تقرأ وتقرأ كثيراً.

إنني لا أريد ان اطيل في هذا الباب حول ما تقرأه عفيفة فانا أتحدث الان عن اثر الجولات التي قامت بها الى الخارج والمؤثرات التي أفادت في صقل مواهبها ومشاعرها..

والحقيقة انه لمن الصعب ان نقطع برأي حول ما اسبغت تلك الجولات والسياحات على مواهبها ولكننا لن نخفق اذا بحثنا اثر ذلك في مشاعرها وتفكيرها..

اذ انها وجدت ان الحياة ارحب واوسع من الذات وعبادتها وان من عظمة الغرب، روح الالفة والمعاونة ومشاركة الاخرين في نكباتهم وهمومهم .

وفي اعتقادي - ان هذه الفضيلة التي بلورتها سفراتها الى الغرب، واعني بها نكران الذات الى حد كبير والتفكير بالآخرين او بالأخريات على الأخص لشيء له قيمته في حياة هذه الفنانة.

لقد عادت وهي تشعر ان الحياة لا تكون ذات مجد لاحد اذا لم تسطع فيها روح الرحمة والمعاونة وان الفنانة هي اولى الناس بتخفيف آلام الآخرين وشد عزائمهم وإدخال الأمل والمرح الى قلوبهم..

ومن آثار هذه الهزة التي اهتزت لها مشاعرها، رأينا الانعكاس الصريح لها في بغداد.. حيث تجد وبسهولة ان عفيفة تعيل عدداً من النساء اللواتي افل نجمهن وكن شيئاً في عالم الفن في زمنهن !

وتجري على بعضهن جراية خاصة من دون ان تقيم حول ما تفعل ما يقيمه غيرها من الدعاية الفارغة والمفاخرة الرخيصة..

ان عفيفة في هذا الحقل شيء جدير بالاكبار، وانها لتثبت بصراحة قاطعة- ان النجوم لا تسقط من سماء الناس دفعة واحدة..

يروى عن الكاتب الفرنسي اناتول فرانس انه كان يأمر بحرق بريده اليومي فيلقى جميع ما يرده من الرسائل - في المدفأة- ولا يستبقي سوى رسالة واحدة كانت ترده منذ عهد بعيد يومياً وليس فيها غير هذه العبارة "اعرف نفسك ايها المغرور"..

وكانت تلك الرسالة ذات اثر في حياة انتول فرانس واخلاقه فلم يركبه الغرور ولم ينطلق مع شهرته يملأ جوانبه الكبرياء فقد بقي انساناً بسيطا حلو المعشر محبا للفكاهة طبيعياً في نظرته للامور.

وبريد عفيفة مشحون برسائل عديدة من اناس تختلف أذواقهم وأخلاقهم ومشاربهم وثقافاتهم وتجمع الرسائل التي ترد اليها كل انواع المتناقضات.. فمن رسائل الغرام الحاد والتوجع الى رسائل اللهو والسخرية الى رسائل التولة الى عروض للزواج.. ثم رسائل من نوع آخر فيها شيء من ذل الحاجة وهوان الطلب..

قالت عفيفة ذات مرة - انها ظلت لاكثر من سنة تتلقى رسائل كل يوم من رجل مجهول يضع في تلك الرسائل كل أوجاعه وحنانه وحبه ونصائحه المتوالية ثم اعتذاره في كل مرة باعماله الكثيرة التي تحول دون ان يتعرف عليها..

ولقد اعجبت عفيفة ببعض الرسائل المطولة التي كانت ترسل اليها، ذلك ان تلك الرسائل لم تكن آيات بث وشكوى وحسب وانما كانت مطارحات أدبية ومساجلات في شؤون الحياة ومحاولات عما يصادف المرء من مشاكل.

وقد كتبت انا الى عفيفة أكثر من رسالة مضمخة بعواطف الحب وفيها ذلك الانين الهادئ الذي يخرج من قلوب الكهول في ذكريات صبواتهم الراحلة.. وقد كنت اظن ان رسائلي ستكون ذات قيمة لديها حتى علمت ان عفيفة لا تحتفظ بالرسائل التي تصل الى يديها وأقول الرسائل التي تصل لان هناك اما رقيبة على البريد تصادر كل رسالة طويلة مزعجة رفقاً بعفيفة وتخفيفاً عما تكايده في الحياة من الثقلاء.

لم استطع ان أدرج شيئاً من الرسائل التي ترد اليها لان عفيفة لا تريد التشهير بمن يحبها وان كتم اسمه. ذلك ان رقة عواطفها تجعل من هذه المسألة اعتداء مباشراً على أسرار الآخرين.

ولسنا في الواقع بحاجة ماسة الى شيء من تلك النماذج فرسائل الشبان المراهقين وطلاب المدارس مليئة بالآهات والآلام ورسائل المثقفين مملوءة بالحكمة وكبرياء الأدب والتهرب من العروض السخية!

ثم رسائل الادباء وهي تفرش الأرض وروداً تحت قدميها وتلقي النجوم تيجاناً وعقوداً فوق رأسها..

وهناك القصائد باللغتين العربية والعامية، قصائد في مدحها والثناء على جمالها وكياستها وقصائد ركيكة يريد أصحابها ان تتغنى بها، ومقطوعات يسرقها الشبان من الكتب والدواوين الوجدانية ثم الابوذيات والمنلوجات والمحاورات وهي تتراوح عادة بين الرصانة والركة وتتسم بالمرونة والخور فلا تجد عفيفة فيها غنية ولا بغية.

حتى انها لتأخذ اكثر ما تغنيه بالعربية الفصحى من بطون الكتب والدواوين القديمة، لان ما يصل اليها من الشعر الحديث إما انه يكون ركيكاً تافه المعنى او انه يكون منسوجاً على منوال لا ينسجم ولا يتفق مع الالحان او يستعصي على الالحان القصيرة التي تبدع عفيفة في أدائها أيما إبداع.

قلت - لها ذات مرة ان لي حكماً قد يكون قاسياً على منلوجاتك ان بعضاً منها ذو معان اقرب الى السخف..

قالت : ادري هذا ولكن ما العمل وهذا هو ما يصلني وهو أحسن ما ينظم في هذا الحقل !

والحقيقة ا ن عفيفة لا تلام على ما تغني من اشعار فهي الى جانب كونها- خير ما يقدم اليها- تأخذ بتشذيب الكثير منه وتحاول ان تبرئه من الاسفاف وما قد يخدش السمع او الذوق.

اما الحانها فليست مسؤولة عنها ايضاً لانها لا تجد غير هذا العدد المحدود من الملحنين الذين يسطون على الألحان

القديمة او الالحان التركية او المصرية ويقدمون لها الحاناً هجينة لا ذوق فيها ولا رابط يربطها بأذواق الآخرين.
وعفيفة سخية بالدفع لهؤلاء الملحنين وانها اكثر الفنانات تجديداً والصرف من اجل هذا التجديد الذي لا يأتي كله على المرام.
ومع ان المنلوجات في الأساس يجب ان تحمل طابعاً انتقادياً لخفتها وسهولة تداولها فان منلوجات عفيفة تفتقر الى هذا العنصر ولا ادري اهذا هو ذنبها ام ذنب من يضع لها تلك المنلوجات؟ على انني ادري ان عفيفة تحاول إبعاد الانتقاد السياسي من أغانيها لتسلم من النقد او خوفاً من تجريح احد من الساسة وبعضهم من اصدقائها وممن تعجب بشخصياتهم وان كانت لا تؤمن بتصرفاتهم واعمالهم السياسية.
ان مساهمة منلوجات عفيفة في حقل الاصلاح الاجتماعي ضئيلة فهي اشبه بالسوانح العابرة مع انها كانت تستطيع- بقليل من الشجاعة- ان تجعل أغانيها على كل فم ومقبولة في كل وسط..
لقد كنت أتحدث عن بريد عفيفة ولكنني وجدت ما ذكرته كبير العلاقة بهذا الفصل.
ان على عفيفة كفنانة - والفنان ليس آلة من آلات التسلية- بل هو موجه ومنافح عن الشعب ومكافح ضد الفساد والخيانة والجشع.. ان عليها ان تغير شيئاً من اتجاهها الحالي فتجعل لمنلوجاتها طابعاً من القوة للدفاع عن تقاليد هذا المجتمع والتعبير بها عن آلامه.
وهذا هو الفراغ البارز الذي يراه كل انسان ثاقب البصر فيطالبها بإخلاص حقيقي لسده ولو بشيء من خسارة تتأتى من تجافي سياسي صديق او رجل اعمال طماع وما اكثر ما تعرف عفيفة من هؤلاء.
كان رجل من جلاسها-يحاول الابتذال فسرد نكات مبتذلة..في مجالسنا الخاصة! وكانت تحاول في كل مرة ان تخرج من نطاق الوسط الذي هي فيه وسط الفن الى افق ارحب، افق الحياة العالية ذات الاسلوب اللطيف المنسق الذي يتمتع به غير ارباب الفنون.
وكانت اعظم الامنيات لديها هي ان تخلد بعد العمل الى الهدوء -تقرا وتستريح وكان هذا عسيراً في الحقيقة ولايزال عسيراً على حسناء مثلها يدوي حبها في كل قلب ويهتف باسمها كل محب.
وعفيفة- ذواقة فنانة- ما في ذلك من شك وقد اعجبت بهذه الناحية العظيمة فيها.
فليس من الهين ان يلمس امرء فنانة حقاً في مثل اوضاعنا ومفاهيمنا الخاطئة عن الفنون اجمالاً...فنانة تعرف كيف تتحدث وكيف تفكر وكيف تتصرف وكيف تلبس.
اما اللباس فتعتبر عفيفة في اموره ذات شأن فهي انيقة بالفطرة متيمة بالازياء الحديثة وبالنماذج العصرية تلتذ بالفستان الجديد تلذذها بكتاب سلس جميل العبارة او بأكلة شهية مختارة، وتعرف كيف تنسجم الالوان وكيف تكون ملائمة لجسمها.
وكانت عفيفة في البداية ناعمة ضئيلة الحجم ثم امتلأت ففقدت شيئاً من الرشاقة التي كانت تسبغ عليها رونقاً خاصاً.
كثيراً ما حاولت ان اخضع عفيفة في احاديثي الى منطق الواقع والى الاكتفاء بما تعطي الحياة ولكنها لم تكن لتقنع بذلك فقد كانت الحياة بالنسبة لها قاسية موجعة على ما أسبغت عليها من آيات النعمة والجمال والشباب.
وقد بدأت فكرتها عن الحياة تتبلور في الاعوام الاخيرة بعد ان كشفت الحدود الضيقة التي تعيش فيها مطامع العدد المحدود من الذين اثروا في حياتها وتحكموا فيها ردحاً من الزمن.
انني لا استطيع ان اكون قاسياً مع عفيفة ولكنني استطيع ان اقول ان شكواها من النتيجة التي صارت اليها في خدمة الفن وهي نتيجة اظن انها لا ترضاها في كل ذلك نفع للفن والحياة بنطاق اوسع.
لقد كان على عفيفة ان تؤدي ضريبة الجمال وضريبة الذكاء الوقاد وضريبة الطموح الذي يتعب النفس! لم استطع ان اصور لعفيفة حتى الان صورة صالحة او اعطي عنها نموذجاً لحياتها وتفكيرها ومن الصعب ان اوفق الى كل هذا يوماً ما، ذلك ان الصور عن عفيفة تتداخل في ذهني بشكل يجعلني قليل الاستقرار في الحكم عليها، فان عفيفة تستطيع ان تكون اكثر من امرأة واكثر من فنانة واكثرمن عملة ذهبية ذات وجهين! فهي كما اتخيل حياناً تصلح ان تكون سكرتيرة فنانة لرجل اعمال اوروبي او عارضة ازياء في اجمل معارض العالم او مضيفة في طائرة تنسي الخائفين ما يكابدون كما انها تستطيع ان تكون بكل سهولة في خدمة أي قلم للاستخبارات لو لا ذلك الكبرياء الذي يريها مساوئ الاشياء ويجنبها مغبة التصرفات التي لا ترضى عن نتائجها، ولا ادري هل كانت عفيفة تنجح لو كانت الحياة اخذت بيدها نحو اتجاه آخر اعني هل كانت تنجح كزوجة وكأم وكربة بيت؟
يخيل لي انها -هي نفسها- ترى في هذا السؤال مفاجأة لان ذهنها لم يكن قد اهتز لمثل هذه الامنيات كما ارى اذ ان فرصاً كثيرة قد اتيحت لها لتحقيق ذلك فلم تفعل ، فلقد كانت ككل فتاة مستقبلها بيد القدر- لا تستطيع تحقيق شيء يخالف سنن الفن الذي احبها اكثر مما احبته كما يبدو لي، قلت لعفيفة ذات ليلة انك صورة عظيمة، انك لوحة فخمة في صالون ضيق لا يدخله النور، فابتسمت ولم تعلق على ذلك بشيء وقد تكون هذه العبارة قد اعجبتها او كشفت لها جانباً من ثناء جديد لم تسمع مثله من الآخرين.
واعتقد وارجو ان لا اكون مخطئاً ان مثل هذه الكلمات الحقيقية لها اجمل رنين من الذهب الذي تبش له وجوه وتضطرب له قلوب الأخريات.
ان عفيفة فنانة بلا شك وقد عرفت ذلك في حياتها البعيدة عن المسرح والفن في تلك الروح الذاكرة لشهداء هذه الحياة وفي ذلك الاسلوب الفخم الذي تعيش فيه من الرغد غير حاسبة للغد أي حساب.
وفي ذلك الفهم الدقيق للحظة الواحدة التي تخرج من ملك الفنان لتذهب الى وادي الفناء! وفي ذلك الحب العميق لتذوق المجهول الذي لم يتذوق بعد وفي ذلك الحنين المعذب للنفس الى التذكارات الماضية التي تذوب في هالة من الاعجاب الذي لا ينقطع من الناس والذي لا يمكن ان ينقطع الى بضع سنوات مقبلات.
من الصعب ان يعرف المرء ما في اعماق عفيفة حين تعمر مجلسها بالنكات..اتراها تريد المرح بالنكتة ام الشماتة أم السخرية ام الظهور بمظهر من يستطيع القاء روعة جديدة على جمود الحاضرين.
ان ذكاء عفيفة لا يظهر بشيء بقدر ما يظهر بسرد النكتة الشائعة او المروية ولا يكون حاداً قاسياً الا بالنكتة التي تجود بها قريحتها تعليقاً او تعقيباً وتأتي عفو الخاطر دون تلكؤ او تكلف. وعفيفة كالذهب الصافي لا يظهر صدقه الا في المحك، والمحك الصحيح لذكاء عفيفة، لا يظهر وابريزها لا يسطع الا امام من يحاول منافستها بالنكتة ومحاولة التغلب عليها اذ تكون عندئذ (عسلاً في علقم) تضحك على نكتة الاخرين بينما ترسل نكتها لاذعة في الصميم ثم تراوغ بسهولة لتنسى اثر الجرح الذي تحدثه، او تغير الجو فجأة وتسبغ على الغيوم ضياء شمس ساطعة هي ابتسامة او نظرة مملوءة بالحلاوة والامل.
فانا وعفيفة من نكاتنا المستمرة في حرب عوان نتبادل النكات لاذعة عاصفة تارة وتافهة باردة تارة اخرى. ويعجبني من عفيفة طريقة سردها للنكتة ذلك انها تلقى في النكتة طابعها الخاص لتبدو جديدة وان كان المرء قد سمعها مائة مرة. وهي صيادة ماهرة للنكات وتحويرهاا بحيث تلائم طبيعتها الشفافة ولوذعيتها المملوءة بالفتنة فهي احياناً كالفارس الشجاع ينتزع السهم من صدره ليغرسه في صدر خصمه في لحظات اشبه بالعمل السحري.
ان عفيفة بالنسبة للنكات ذهن معبأ متحفز على الدوام وكأنه قد اعد اعداداً خاصاً ليجابه كل نكتة مهما كانت طارئة قاسية ام باردة مؤنسة.
ويقتضيني الانصاف ان اقول انني لم اسمع منها يوماً ما نكتة "بذيئة" مع كثرة النكات المكشوفة وشيوعها وتداولها وفي اعتقادي ان مرد ذلك هو ان عفيفة تريد في تلك النكات او في تلك المجالس المفضلة ان تسمو عن توافه الناس وأضاحيكهم وتتخلص من مرارة الحوادث المزعجة لذوقها والتي لا تسطيع ان تتخلص منها بحكم عملها ومجاملتها لمختلف الاذواق من مختلفي الثقافات والعقليات! فاذا حضرت مجتمعاً وجدت فيه رغبة لتبادل نكات سخيفة فاضحة تسللت بسرعة وبألف عذر مقبول وتركت المجال فسيحاً للاخريات. انني اتحدث بالطبع عن مجالسنا الخاصة نحن الذين نحيط بها وكلنا من ارباب الاقلام والادب والفنون والصحافة. وتسمى جلساتنا تلك بالجلسات الفنية "أي اليابسة" من عنصر المادة الذي يغري الاخريات من الفتيات وقد لا تكون جلساتنا مرضية لاصحاب الملاهي التي تعمل فيها ولكنني واثق من انها تجد في جلساتنا تلك راحة عميقة اذ تجد في تلك الاوقات فرصة للاستمتاع بالحياة الحقيقية التي يغمرها الاعجاب الصادق والنظرة الطبيعية للامور ضمن ما يفرضه النظام السائد العام. وليست عفيفة مجرد فنانة تغني او مجرد فتاة ذات وجه صبوح وانما ايضاً قطعة من الذكاء المتوهج انها تتلقى النكتة كالطعنة بفروسية ثم ترد عليها لاذعة فإذا ارادت ان تشفق على زلل منتظر من منكت سخيف راحت تعبث بأظافرها وتنظر بطلائها او تغرق في هواجس مجهولة، ومثل هذه الحالة من عفيفة انقذتني اكثر من مرة فقد كنت اشعر انني مقبل -من طبيعة ما اقول- مقبل على خطأة او سرد نكتة غير مرضية للذوق، فاتجنب ذلك قلت لها مرة انك اشبه بزهرة "ملتون" قالت وما هي زهرة ملتون؟ قلت-زوجته، كانت حسناء فارطة الحسن وكان هو اعمى وكانت الى جانب جمالها.. فنهضت على عجل وقالت: شكراً انني اعرف الباقي، انني مدعوة الى المسرح وسألني الاصدقاء عن بقية ما في زهرة ملتون فقلت: كانت زوجة ملتون جميلة ولكنها شرسة معه فاذا قالوا لملتون انك صاحب اجمل زهرة في انكلترا، لوى عنقه وقال: هذا صحيح ولكنني لا اجد في هذه الزهرة سوى الاشواك. وليست هذه اول مرة تتخلص عفيفة من النكات التي يصعب انطباقها او ترد على الخاطر بغير مناسبة حميدة فتردها بخفة وتزوغ عنها وبذلك تحسن الى من هو على وشك الخطأ وقبل الوقوع فيه، وتجنب نفسها الغضب حين تدخل النكتة جارحة لتمزق الجلد الذي تتستر وراءه بمهارة.
ليس من العدل ان تقول ان عفيفة تتصنع النكتة او تميل اليها شماتة بالناس او سخرية بالاقدار التي سخرت من امانيها كامرأة على الاقل بل من العدل ان نرى وجهها الحقيقي من خلال ما تسرد من نكات او تفاجئنا به من نكات عفو الخاطر.
ان الدموع لم تعد معياراً صحيحاً للحزن كما ان الضحك لم يعد مقياساً يركن اليه كدليل على الفرح والرضى ان حقيقة المرء لا تظهر الا في تصرفاته حين يروي نكتة من النكات ذلك ان كل امرئ يكيف النكتة ويفلسفها بالطبيعة التي يفهم بها الحياة! بل ان تلك النكات تروى بلسان لبق ما يفهمه المرء من الحياة وما هي نظرته اليها كمسرح كبير تدب فيه كل الوان المتناقضات والفجائع.
ان النكتة لا تروى للتسلية وحسب وانما كتفريج لكرب او لعنة على الحياة وما فيها من قساوة، او تحد عاصف لما فيها من قوى الشر والفساد والتخريب والحقيقة انه ما من شيء يستطيع ان يعبر عن روحنا الباسلة في ساعات الهموم واليأس وترد على تحدي الزمن كالنكتة التي تخرج من الصميم حاملة عبرة او ضحكة او معولاً لتهديم بنيان شامخ على اساس من الرمل والوحل. وباعتقادي ان قريحة عفيفة تعبر -بطريق النكتة- عن انصع ما في نفسها من خواطر وما لها من نظرة عميقة وفهم لواقع هذه الحياة.

كثيراً ما حاولت ان اخضع عفيفة في احاديثي الى منطق الواقع والى الاكتفاء بما تعطي الحياة ولكنها لم تكن لتقنع بذلك فقد كانت الحياة بالنسبة لها قاسية موجعة على ما أسبغت عليها من آيات النعمة والجمال والشباب.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

الفنانة عفيفة إسكندر..
جوانب خفية من حياتها

الحديث عن الفنانة القديرة عفيفة اسكندر يعد حديثا ذا شجون لاهمية هذه الفنانة الكبيرة من جهة وصمتها عن الغناء قبل الأوان من جهة اخرى.. عفيفة اسكندر نجمة الغناء العراقي لما يقارب الخمسين عاما قدمت فيها كل ألوان الغناء وعلى نحو جميل مثير... عفيفة اسكندر صوت ملأ اسماعنا لسنين طويلة.. صوت لونه فريد ورائع يحمل نكهة بغدادية اصيلة.. عذوبته تنساب كماء زلال...وعفيفة فنانة شغلت الناس دهرا طويلا بعذوبة وحلاوة صوتها وفطنتها ودرايتها وتذوقها الموسيقى لكل شيء جميل واصيل وكان احد عشاق فنها الصحفي الرائد الراحل صادق الازدي الذي لازمها لمدة طويلة وعنها يقول: (كنت من سهار الليل.. ومن الطبيعي ان اعشق الصوت الجميل.. وابحث عن الراقصات والرشيقات! ومن الطبيعي ان اتعرف على مونولجست جميلة التقاطيع في صوتها حلاوة، وفي ادائها لمنولوجاتها ما يجعلها اقرب الى القلوب وألصق بالنفوس)!.

كمال لطيف سالم

و هي صوت غنائي قدم لأسماعنا اجمل الاغنيات واعذب الألحان طوال ما يقارب اربعين عاما واثرها مازال خالدا في الاذهان وذكراها لم تزل نضرة، رغم انها حبست صوتها عن جمهورها بإرادتها وحرمته من نعمة الاستمتاع به لأسباب غير معروفة ولا معقولة، ولا اجافي الحقيقة اذا قلت ان صوتها ما زال مطلوبا، وبحماس شديد من قبل الجمهور، رغم ان التلفزيون والاذاعة تنكرا لهذه الموهبة الكبيرة بفنها وشخصها..

و هي ليست بمطربة عادية، لأن صوتها من الاصوات المثقفة والجميلة ذات النكهة المحببة، وهي اضافة لجمالية صوتها ودورها الكبير في الحركة الفنية كانت ذات تأثير كبير في الحياة السياسية ايضا.

لقد دخلت عفيفة اسكندر عالم الفن وهي في سن الثامنة من عمرها عام ١٩٣٥، عند ولوجها لعالم الفن الكبير ودهاليزه المتعددة ومسالكه الوعرة.. تزوجت (بإجبار من اهلها) في سن (١٢) عاما من رجل عازف وفنان قدير عمره يتجاوز (٥٠) عاما التزمها بالفن فضلا عن والدتها التي تدعى (ماريكا دمتري) و هي يونانية الاصل (و كانت عازفة على ٥ آلات موسيقية و كانت توبخ عفيفة لانها لا تعزف على اي آلة موسيقية) وتعمل مطربة في ملهى هلال عندما كان يطلق عليه اسم (ماجستيك) وانشئ بعد احتلال بغداد في منطقة الميدان بباب المعظم، كما هو حال بقية الملاهي التي ظلت تعمل الى عام ١٩٤٠، وكانت والدتها المشجع الاول للدخول في عالم الفن (و كانت عفيفة تدرس في مدرسة الطاهرة فخافت عليها والدتها من الطريق فأرسلتها الى الملا فحفظت القرآن و احبت اللغة العربية التي كانت تتقن لفظها بشكل مضبوط و لذلك كانت تختار قصائدها من دواوين الشعراء الكبار) . و اول درس تتعلمه عفيفة في حياتها هو صفعة من امها التي تقول لها :لن تصبحي فنانة حقيقية و عندما تصبحين كذلك تحدثي بالفن

و كانت شابة مغناج في عام ١٩٣٥، وذكية جدا كما تقول والداتها لها دوما.. والتف حولها شخصيات مهمة وذات مكانة اجتماعية.. وغنت لهم المنولوج لمدة (٥-٦) دقائق باللغات: التركية والفرنسية والالمانية والانكليزية ويسمونها بالمونولوجست، وعملت مع الفنانة (منيرة الهوزوز) حيث كانت تغني معها مقابل دينارين و كذلك عملت مع الفنانة (فخرية مشتت).. ظهرت لاول مرة على المسرح في ملهى صغير بمدينة اربيل في اواسط الثلاثينيات وكانوا يسمونها (جابركلي) او المسدس سريع الطلقات... اتت هذه التسمية من صفة الغناء الذي ادته غناء سريعا نتيجة لصغر سنها وعدم نضوج صوتها آنذاك.. واول اغنية غنتها في اربيل (زنوبة.. آه من زنوبة عم بتعيط وتنادي خطفها البغدادي آه من زنوبة) غنتها بعمر ٨ سنوات الا انها حصلت على نقد لاذع من احد الاشخاص . الا ان شخص آخر صعد الى المسرح و طلب منها غناء (عنتر يا عنتر) لان ابنه يحبها . وغنت في ارقى ملاهي العاصمة بغداد منها ملهى (الجواهري) و(الهلال) و(كباريه عبدالله) و(براديز).. علما ان الملاهي كانت سابقا افضل من النوادي الاجتماعية الموجودة حاليا..

ذكريات فنية

يتحدث الناقد عادل الهاشمي عن ذكرياته الفنية مع صاحبة الصوت الشجي فقال: في العام ١٩٦٢ اقيمت حفلة كبيرة في كلية العلوم في الاعظمية وكانت المطربة عفيفة اسكندر هي فارسة الحفلة، وكان الجمهور يترقب ظهورها وحين اعتلت خشبة المسرح كانت عاصفة من التصفيق تملأ الاسماع، بدأت تغني ما يطلبه جمهورها من اغنيات لأنها تحترمه كثيرا» فغنت (كلب كلب واحمله احمله ومحصن بله وقيل لي قد تبدلا) وهي من ألحان رضا علي و(يا عاقد الحاجبين) الحان علاء كامل و(تعيش انت وتبقى) لناظم نعيم و(عين كوليلي اشبيج) لاحمد خليل واثناء انتهائها من بعض الاغنيات حدث ان طلب احد الحاضرين اغنية (تكتب يا قلم) ولأنها لا ترفض اي طلب لجمهورها فقد لبت طلب هذا المستمع لكن المشكلة حصلت عندما تعذر على الفرقة الموسيقية ان تعزف اللحن وهو لحن قديم جدا «فحصل نوع من التفاوت بين اداء الفرقة وصوت المطربة ومع ذلك اصرت على ان تؤدي الاغنية كاملة رغم تخلف الفرقة عن اداء مقاطع اللحن، واذكر ان الفرقة كانت تتكون حينها من الفنانين خضير الشبلي (آلة القانون) وخزعل فاضل (على الجلو) وكريم بدر (على الكمان) وكريكور (على الناي).

وفي حفلة اخرى كانت تغني اغنية (اي والله على عنادك) من ألحان الفنان عباس جميل وهي اغنية جميلة تعتمد على قالب شعبي وفيها لازمة موسيقية سريعة الحفظ في نهاية عقد الستينات، وقد اثارت الاغنية اعجاب الجمهور الى الحد الذي اجبر المطربة عفيفة على ان تعيد مقاطع الاغنية مرات عدة ثم انتقلت الى اغنية اخرى وما ان انتهت منها حتى عاد الجمهور الى طلب اغنية (على عنادك) مرة ثانية، ولبت طلبهم لكن دون ان تكمل الاغنية بأكملها.

مناظرات شعرية وفنية وسياسية

يتحدث الناقد عادل الهاشمي عن ذكرياته الفنية مع صاحبة الصوت الشجي فقال: في العام 1962 اقيمت حفلة كبيرة في كلية العلوم في الاعظمية وكانت المطربة عفيفة اسكندر هي فارسة الحفلة،

اما بخصوص الجانب السياسي في حياة المطربة عفيفة اسكندر فقال الناقد الهاشمي: «عرف عنها التزامها الشديد بالنظام الملكي واحتفالها المتواصل برجالاته وكانت تمتلك علاقات خاصة ومميزة برئيس الوزراء نوري سعيد الذي كان من اشد المعجبين بصوتها واناقتها! وسجلت بصوتها مشاركتها في اغلب الاحداث السياسية التي حدثت في العهد الملكي، لأنها انطلقت بموقعها هذا من ايمان بأن هذا العهد يعمل جاهدا من اجل ترضية الاطراف والتشكيلات السياسية آنذاك».

ولأنها مطربة مثقفة ومحبة للشعر وتواقة للأدب كان مجلسها (الذي يوجد في منزلها الواقع في منطقة المسبح في الكرادة)، و هو يضم ابرز رجالات السياسة والادب والفن والثقافة في البلاد.. لا يخلو من المناظرات السياسية والشعرية والفنية والادبية حيث كان يضم كبار الادباء والسياسيين والفنانين منهم نوري السعيد وابنه صباح والوصي عبدالإله وتوفيق السويدي وسعيد قزاز وخليل كنة وفائق السامرائي عضو حزب الاستقلال وعضو مجلس الامة، والنائب حطاب الخضيري، واكرم احمد وحسين مردان وجعفر الخليلي وابراهيم علي والمحامي عباس البغدادي وخصوصا العلامة الدكتور مصطفى جواد مولعا بفنها وجمالها كان يحضر الى مجلسها باستمرار ويصحبها كثيرا ويقبل يدها في نهاية كل اغنية فضلا عن الفنانين حقي الشبلي وعبدالله العزاوي ومحمود شوكة وصادق الازدي والمصور آمري سليم والمصور الراحل حازم باك.. واسماء كثيرة اخرى

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

أول مطربة تغني القصيدة

والمطربة عفيفة تعتبر نتيجة لكثرة مطالعاتها للشعر اول مطربة عراقية غنت الشعر وقدمت ما يقارب ٦٠ قصيدة ولم يعرف عن مطربة عراقية اخرى غنت هذا العدد الكبير من القصائد، لا سيما وان غناء القصيدة في الغناء العراقي يكاد يكون محدودا جدا، وقد غنت لأساطين الشعراء مثل سناء الملك والبهاء زهير والشيخ علي الشرقي وطبقة الشعراء المحدثين.

و اول اغنية لعفيفة اسكندر فيقول الهاشمي: «حسب معلوماتي ان اول اغنية سجلتها للإذاعة العام ١٩٣٧ هي (برهم يا برهوم يا بو الجديلة عذبت حالي وايدك طويلة) ثم اعقبتها بأغنيتها الثانية (زنوبة) بعدها اتجهت في الغناء الى قطبي التلحين العراقي (صالح الكويتي وداود الكويتي) واشتهرت بسرعة بسبب رصانة صوتها وعذوبته ووقفت بسرعة بمصاف اشهر مطربات ذلك العصر كزكية جورج وسليمة مراد وسلطانة يوسف وصديقة الملاية وزهور حسين.

مطربة العراق الاولى

سافرت الفنانة عفيفة اسكندر الى خارج العراق كثيرا واحيت العشرات من الحفلات الغنائية في اميركا واوروبا ومصر ولبنان وسوريا والاردن، ولكثرة حفلاتها وحلاوة صوتها وعذوبته فقد لقبتها الصحافة العربية بألقاب عدة وقالت المجلات اللبنانية عنها مطربة العراق الاولى.

. و قد عملت لمدة طويلة مع فرقة (بديعة مصابني) في مصر وهي اشهر راقصة وممثلة مصرية في الاربعينيات.. وكذلك عملت مع فرقة تحية كاريوكا.. وابرز مشاركاتها العربية هي التمثيل في فيلم (يوم سعيد) مع الفنان الراحل الكبير محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة وغنت فيه لكن لسوء الحظ لم تظهر الاغنية عند عرض الفيلم بسبب المخرج الذي حذفها لطول مدة العرض التي تجاوزت الساعتين.. ومثلت في افلام اخرى بلبنان وسوريا ومصر منها القاهرة. بغداد

جانب خفي في حياتها

ويواصل الناقد الهاشمي حديثه فيقول: «الى جانب وجاهتها ودورها المعروف هناك جانب خفي من حياتها الخاصة قد لا يعرفه الكثير، اذ انها كانت وراء الكثير من حملة الشهادات والكفاءات فقد تابعت دراستهم بالتعضيد المادي المباشر، بل ان كثيرا من العوائل كانت تلجأ الى عفيفة اسكندر لمساعدتها وهي تستجيب لهذا الجانب الانساني، ولم يعرف عنها انها تخلت عن احد المحتاجين ممن طلب مساعدتها وكانت تطلب منهم عدم ذكر اسمها وراء ذلك، لأن هذا عمل لله وحده.

تقييم صوتها

يذكر الاستاذ عادل الهاشمي عن تقييمه لصوت عفيفة فيقول: «عفيفة تستثير فضول الذاكرة الفنية لأصول الغناء دون ان تزودها بأي تفسير نفسي ومعرفي، ففي هذا المحيط الفني يجول المغني وتتفحص الاذواق لذلك بقيت طريقة عفيفة اسكندر في الغناء تحمل نزوعا نحو التعلق الشديد او الرفض الشديد، اذ انتقلت حنجرتها الفنية بين الغناء البدوي والغناء الحضري باقتدار وتمكن عجيبين، وبكثير من دواعي الانشاد الحر غير المقيد، وعفيفة تستحضر قواها الصوتية في ابراز الاسلوبية التي طبعت غناءها فهي تمتلك حضورا مع تنوعات محدودة، وتقيد صوتها بإعداد صارم بل تغني بلهجة عراقية مصحوبة باحتياطات حجازية تارة وخليجية تارة اخرى مع اشهار التأثرات البارزة في الغناء المصري، وسر صوتها ينبئ عن دخول انتصار في مجال الغناء، وفنها الادائي توفر على خاصيتين اساسيتين هما العبور الى الاسماع والاستيطان في الذاكرة وهذا في حد ذاته يعكس تألقا للغناء العراقي، وهو تألق يأتي على اية حال من كونه يتحدر من نوع بيئوي عراقي صميمي.

اشار الموسيقار المرحوم منير بشير الى انه لم يكن يعزف في فرقتها الخاصة كما ورد في حديث الناقد سعاد الهرمزي بل كان عازفا في فرقة الاذاعة الخاصة وهي فرقة عزفت لكبار فناني القطر امثال محمد القبانجي ورشيد القندرجي وناظم الغزالي اضافة إلى عفيفة اسكندر.

احداث و قضايا في حياة المطربة

أ) تحت تهديد السلاح

تميزت حقبة الثلاثينات بانها حفلت باحداث جسيمة مثل دخول العراق الى عصبة الامم ثم وقوع انقلاب بكر صدقي ضد وزارة طه الهاشمي واستيزار حكمت سليمان،،، وحصل في تلك الايام ايضا ان منتديات وملاهي بغداد عرفت المطربة الحسناء عفيفة اسكندر واشتهرت في تلك الاوساط وتردد اسمها بين كبار مسؤولي ذلك العهد وفي مقدمتهم علي الحجازي مدير الشرطة العام وهو ضابط من بلاد نجد والحجاز جاء مع عائلة الملك فيصل الاول وسكن العراق وحصل فيها على عدة مناصب وكان يرتبط بصلة وثيقة بالوصي على عرش العراق عبدالاله، وقد ارتبط الحجازي بالمطربة عفيفة بعلاقات وثيقة.

وكان الحجازي يحضر معظم حفلات عفيفة وفي جلساته الخاصة كان يلتقي بها بحضور صاحب سينما الشعب في ادارة السينما وهو من اليهود العراقيين،،، وفي تلك الجلسة بدأ يتحدث مع عفيفة وقال لها انه على استعداد لتنفيذ كل طلباتها وهنا اشتكت عفيفة له من تصرفات اليهودي صاحب السينما الذي اغمط لها حقا وهي تطالبه باجورها كاملة،،، فثار الحجازي رغم انه صديقه، وانتزع مسدسه وهدد صاحب السينما بالقتل اذا لم يدفع ٥٠٠ دينار حالا لعفيفة ،،، وامام هذا التهديد استسلم اليهودي صاغرا ودفع المبلغ كاملا «وعين تضحك وعين تبكي» كما يقول المثل!!

ب) يا حافر البير لا تغمج مساحيها

يذكر الفنان إلهام المدفعي نقلا «عن والده حسن فهمي المدفعي انه بعد انقلاب بكر صدقي اقيم احتفال في احد المنتديات البارزة في بغداد وطلب بكر ان توجه الدعوة الى المطربة عفيفة اسكندر للغناء فيه،،، وقد حضرت عفيفة الى الاحتفال من دون رغبة وبعد ضغط وإلحاح من الاصدقاء وبقية المسؤولين الذين ترتبط معهم بعلاقات طيبة من نظام نوري سعيد والوصي عبدالاله،،، وما ان بدأ الاحتفال وصعدت عفيفة الى خشبة المسرح حتى جاء صوتها قويا وبرنين مؤثر وبلهجة معبرة لا تخلو من تذمر ووعيد ،،، فشدت باغنية:

«يا حافر البير لا تغمج مساحيها خاف الفلك يندار وانت تكع بيها».

وعندما التفت بعض الحاضرين الى جهة جلوس بكر صدقي وجدوا ان وجهه قد تجهم وامتقع بحمرة لا تخطئها العين ابدا.

ج) عفيفة اكتشفت صبيحة إبراهيم

في احد اللقاءات الصحافية قالت المطربة صبيحة ابراهيم ان عفيفة اسكندر هي التي اكتشفتها ودفعتها الى السير في طريق الغناء، وذلك عندما شاهدتها للمرة الاولى في احد صالونات الحلاقة وهي تدندن مع نفسها اي (صبيحة) وعندما سمعتها عفيفة اقتربت منها وصاحت (الله . الله صوتك حلو) ثم ربتت على كتفي (تقول صبيحة) وقالت الا يعجبك ان تصبحي مطربة وتغني في اماكن عامة ومعروفة، فالتفتت صبيحة الى امها التي كانت تجلس بعيدا عنها في الصالون ما رأيك يا امي، فرفضت في البداية لكن اصرار الفنانة عفيفة ومتابعتها لصبيحة اكثر من مرة جعلها تقتنع بالامر وتنطلق في عالم الغناء ومن ثم تصبح مطربة مشهورة وبذلك تقول صبيحة «ادين بالفضل الكبير للفنانة عفيفة اذ لولاها لما اصبحت مطربة».

واشار الموسيقار المرحوم منير بشير الى انه لم يكن يعزف في فرقتها الخاصة كما ورد في حديث الناقد سعاد الهرمزي بل كان عازفا في فرقة الاذاعة الخاصة وهي فرقة عزفت لكبار فناني القطر امثال محمد القبانجي ورشيد القندرجي وناظم الغزالي اضافة إلى عفيفة اسكندر.

د) شائعة موت عفيفة اسكندر

في اواسط الستينات انتشرت شائعة قوية حول وفاة المطربة عفيفة اسكندر ولم يعرف من كان وراءها هل هم المحبون لها بقصد الدعاية ام الحاقدون فمن يضرهم بخاصها،،، المهم التقط خالد ناجي الذي كان معد البرنامج التليفزوني «عدسة الفن» الاشاعة عبر البرنامج بقصد اخمادها فاجرى لقاء مع المطربة عفيفة وقد بدت في حينها منشرحة وفي احسن حالاتها وغنت لجمهورها بعض المقاطع من اغنياتها، وبعد حين تردد في الاوساط الصحافية والاعلامية ان عفيفة اسكندر هي نفسها التي أطلقت شائعة موتها! لكن المقربين جدا من عفيفة ينفون ذلك لان اخلاقياتها وسلوكها لا يوحي بما تردد في الاشاعة.

وجرياً على طريقة أفلام أيام زمان، اشتركت الفنانة عفيفة اسكندر في فيلمين سينمائيين في نهاية الأربعينات، الاول فيلم(القاهرة بغداد) المرئي من اخراج بدرخان وانتاج شركة اسماعيل شريف بالتعاون مع شركة اتحاد الفنانين المصريين ومثل فيه حقي الشبلي وابراهيم جلال وفخري الزبيدي ومديحة يسري وبشارة واكيم.الا انه لم ينل نجاحاً يذكر من شأنه أن يعزز رصيد عفيفة اسكندر، لكنه عزز مسيرة السينما في العراق بتجربة في زمن كان يحتاجها فيه، لتسهم عفيفة في ريادة أخرى في تاريخ الفن العراقي و الثاني فيلم (ليلى في العراق) انتاج ستوديو بغداد واخراج احمد كامل مرسي ومثل فيه الفنانون جعفر السعدي والراحل محمد سلمان والفنانة نورهان وعبدالله العزاوي وعرض الفيلم في سينما روكسي عام ١٩٤٩.

علاقتها المتميزة مع أهل الأدب، ليست سوى انعكاس طبيعي لعلاقتها بالأدب نفسه، فهي مغنية تكاد تنتمي لمغنيات العصر العباسي، في ما يتعلق بالثقافة الأدبية، رغم السمة العصرية التي طبعت تجربتها وسلوكها بطابع خاص، والبيئة التي حققت صلة نموذجية معها، فغنت قصائد رقيقة بدت متناسبة مع تجربتها ودللت على عمق اختياراتها من حيث اهتمامها بالجملة والمفردة، فغنت للعباس بن الأحنف في(أيا من وجهه قمر) و(بلغي يا ريح عنا) و(طال ليلي واشتياقي) و لابن الفارض في(ته دلالاً) وللعشاق الأندلسيين، كالخطيب الأندلسي الأعمى في قصيدة (قيل لي قد تبدلا)

وكان الشاعر البغدادي الرومانسي(المرحوم شفيق القيمقجي) كان يفخر في أحاديثه بمقهى حسن عجمي، بشيئين اثنين: أشعاره التي كانت تذاع من دار الإذاعة العراقية حين يقرأها بحضور الملك فيصل الثاني، لكونه كان ضابطاً في الجيش الملكي، وبإعجاب عفيفة اسكندر بقصائده الرومانسية، حتى إنه كان يحتفظ بصورة فريدة ونادرة لها، يقدمها لكل من يريد أن يطلعه عليها من الخاصة، بمقدمة معتادة سأريك جسداً عبقرياً) وليس الجسد في الصورة إلا جسد عفيفة، فيما كان الشاعر الرومانسي كمن يحمل جسدها ساخناً في محفظته رغم إن الصورة تعود إلى أواسط الأربعينات.

ليس الشاعر المتمرد، ولا الصحفي الرائد، أو الضابط الملكي، هم العينة الوحيدة من الرجال الذين أحرقتهم نار عفيفة، فشيخ القبيلة ينضم إليهم في قافلة الوجد، ثمة قصص عن الشيخ الذي ضحى بمجده بين قومه وقطعان أبله وتخوم مقاطعاته المترامية، ليضيء ليله بالنار التي تتصاعد ألسنتها من عبارات عفيفة، وخفتها التي لا تخفت. لقد زارت عفيفة العالم بأجمعه، واقامت في باريس لاكثر من اربع سنوات واكثر الملحنين الذين تتعامل معهما هما (احمد الخليل) والملحن خزعل مهدي وكثيرة الاغاني التي كانت تقدمها هي (يا عاقد الحاجبين) و(ياسكري يا عسلي) و(اريد الله يبين حوبتي بيهم) و(قلب.. قلب) و(غبت عني فما الخبر) و(جاني الحلو.. لابس حلو صبحية العيد) و(نم وسادك صدري) وغيرها من الاغاني وبلغ رصيدها من الاغاني خلال مسيرتها الفنية اكثر من (١٥٠٠) اغنية.

و من اغاني عفيفة اسكندر الاخرى نذكر : هلك منعوك – ما انسى بعد وياك ما انسى – حركت الروح لمن فاركتهم – يا لطيف – جوز منهم (عام ١٩٦١)– لا توقف بدربي – الف روح – يا حلو يا اسمر . و غيرها

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

ما لايعرفه الناس عن عفيفة إسكندر

قحطان جاسم جواد

حين اخترت الفنانة القديرة (عفيفة إسكندر) لتكن موضوعة كتابي الاول (عفيفة.. حياتها واسرارها الفنية) لم اكن على خطأ بل كان اختياراً دقيقاً جداً لما لها من اهمية وانجازات كبيرة في حفل الغناء العراقي بالرغم من إهمال النظام السابق لها وتعمده في تجاهلها مما حدا بها الى الاعتكاف في منزلها واعتزال الفن ومقاطعة الإعلام! واتذكر يوم بدأت في كتابة ملف عنها في مجلة ألف باء استغرق نشره بحدود ثلاثة أشهر او ١١ عدداً اسبوعياً من المجلة يومها قال لي احد رجال الامن ممن يشرف على الاعلام لماذا اخترت هذه الفنانة؟ ألا تعرف بأن الحكومة لاتودها؟ فضحكت وقلت له إنها فنانة عظيمة ولديها من الفن مالم تجده لدى غيرها واختياري كان فنياً بحتاً وليس له علاقة بالسياسة وقد عرفت في ما بعد ان كلامه كان تهديداً او محاولة لوقف نشر الملف من قبل النظام السابق!!

عفيفة اسكندر صوت مغرد وجميل.. وهي قلب الجمال النابض.. أودعت يد القدر فيها اوصافاً بدنية وخلالاً نفسيه.. فهي لاتستطيع ان تخفي محاسنها بل تبدت وتجلت في أكمل جمال في نظر عشاق الجمال.. جمال ساحر من صنع الخلاق لامصنع الحلاق.. عفيفة مطربة كبيرة قدمت للاسماع وللجماهير التي احبتها وللغناء العراقي اروع الاغاني واجمل القصائد.. وهي ناحية تميزها عن بقية المطربات.. اذ انها قدمت اكثر من خمسين قصيدة مغناة.. والقصيدة من اصعب انواع الغناء.

والذي عاصر فترة تألقها وعاش سماع حلاوة صوتها عبر مسيرتها الطويلة يعرف الكثير عن فنها وسيرتها ودورها الفني في حياة العراقيين، وعفيفة اسكندر لون فريد في الغناء لايضاهيه او يقترب منه اي لون آخر من ألوان الغناء العربي، وهو ايضاً لون محير فلا تدري هل هو مونولوج او غناء خفيف او غناء عاطفي.. او هو كل ذلك معاً!

اما صوتها واداؤها فيستقلان بمواصفات مميزة وخصائص متفردة ويبتعدان ابتعاداً غير مألوف عن صوت واداء اية مغنية في الوسط الغنائي العربي.

من أين استقت شخصيتها الغنائية؟

أما من اين استقطت المطربة عفيفة اسكندر شخصيتها الغنائية المستقلة، فإنه سؤال صعب لايمكن الرد عليه بسهولة الا اذا عدنا الى الموهبة لنعزو اليها قدرتهاعلى تكوين هذه الشخصية الصوتية الفريدة، ولان عفيفة اسكندر غنت الشعر فان الكلمة عندها تخرج صافية بلفظها وفصاحتها وموسيقيتها وهي في كل ماغنت شعراً او زجلاً اقرب الى الاكتمال اللفظي والاحساس بالكلمة وحسن الاختيار الذي تبدو فيه ملكتها على اشدها في رهافة الحس ورقة الشعور، وهي لم تكن تحسن اختيار الشعر او الزجل حسب بل كانت فطنتها ودرايتها وتذوقها الموسيقي تمتد الى اللحن كذلك.

والمطربة (عفيفة اسكندر) تختار ألحان اغانيها بدقة شديدة وقد رفضت كثيراً من الالحان حتى من اولئك الذين كانوا يقفون في الصدارة (من ملحني القطر) ولم تقبل لحناً قط من اي ملحن مهما علا قدره إلا اذا كان منسجماً مع صوتها ولكأنه قد قيس عليه.. وعلى اثر موقفها هذا من الالحان.. قال عنها العديد من الملحنين والمؤلفين ان اصعب مغنية هي عفيفة اسكندر.. وهي صعبة فعلاً لانها كانت تدقق في الاختيار ولاتغني اي لحن او اي كلام.

البداية من أربيل

ظهرت لاول مرة على المسرح في ملهى صغير بمدينة اربيل في اواسط الثلاثينات.. وكانوا يسمونها في تلك الفترة بـ(جابوكلي) وتعني المسدس السريع الطلقات لانها تغني بسرعة بسبب صغر سنها وعدم نضوج صوتها الا ان الأمر تغير لاحقاً بعد ان اصبحت لديها الخبرة وكذلك التزامها من قبل مجموعة من خيرة رواد التلحين في العراق حيث قدمت العديد من الاغنيات الجميلة التي تشكل الان ثروة كبيرة لتراثنا الغنائي، وابرز من تعاملت معهم من الملحنين الفنان (سمير بغدادي) او وديع خوندة ورضا علي وناظم نعيم وكريم بدر واحمد الخليل وعباس جميل وياسين الراوي وخزعل مهدي وسواهم.

فرقتها الموسيقية

وحتى فرقتها الموسيقية التي تصاحبها في الغناء تختارها بدقة وعناية كي تتناسب مع صوتها وطريقتها في الاداء وحفلاتها كانت اسبوعية وتتضمن في كل حفلة (وصلتين) بحدود ساعة لكل وصلة غنائية وفي بداياتها الاولى كانت فرقتها تتكون من عناصر فنية ثم تركوها وسافروا فبدأت بالتعاون مع مجموعة من الموسيقيين ابرزهم (سالم حسين) و(خضير الشبلي) و(جمال سري) على آلة القانون و(كريم بدر) و(كريكور برصوميان) و(جوزيف حنا) و(جميل بشير) على الكمان و(خضر إلياس) على الناي وعلى العود كان الفنانان (منير بشير) و(روحي الخماش) كما كان الفنان (حسين عبدالله) يشارك في حفلاتها كضابط إيقاع.

ما لايعرفه الناس عن عفيفة إسكندر

وعن الحوادث والمواقف التي لايعرفها الكثير من الناس عن المطربة عفيفة اسكندر نقول ان لها ذكرى مع موسيقار الاجيال (محمد عبدالوهاب) لا اظن انها ستنساها ابداً فقد مثلت معه في فيلم (يوم سعيد) اخراج (محمد كريم) ولحن لها اغنية غنتها في الفيلم عام ١٩٤٠ لكن عند عرض الفيلم لم تقدم الاغنية لان المخرج اضطر الى حذفها مع مشاهد اخرى بعد اكتشافه ان الفيلم قد تجاوز الساعتين وهو وقت طويل ويمله مشاهد والسينما.. ومن الامور الاخرى التي اتذكرها هو لقاؤها مع الموسيقار (فريد الاطرش) والاتفاق بينهما للتمثيل والغناء معه في احد الافلام السينمائية.. وكادت المحاولة تنجح لولا مغادرتها (أي عفيفة) للقاهرة على عجل بسبب التزامها بعقد مع احد الملاهي البغدادية.

اما الفيلم المصري الوحيد الذي ظهرت فيه فهو فيلم (القاهرة.. بغداد) وهو انتاج مشترك (عراقي مصري) وقد كانت عفيفة طيبة القلب وتحمل نفساً زكية وتقدم المساعدة لكل من يطلبها.. لذلك تعاطفت مع العديد من الاسر التي جار عليها الزمن.. حيث قامت بتخصيص مرتبات شهرية منتظمة لهذه العوائل لتمكنها من العيش بكرامة.

قالوا عن عفيفة اسكندر

(استطاعت عفيفة بفضل نباهتها ان تميز بين الغث والسمين، وكانت تختار الذي يروق لها من الشعر الشعبي، ولما شعرت ان هذا الشعر لم يعد يفي بمرامها ركنت الى الشعر الفصيح فأتخذت شعر البهاء زهير رائداً لها وراحت تغني له فكان نصيبها الفوز والنجاح. ومن طبيعتها الفنية انها خلقت مغنية، وانها كالشمعة تحترق لتضيء للناس وآنية تمتلئ ليغترف اصدقاؤها من خيرها وزهرة تتفتح لينتعش من حولها بأريجها ومن طبيعتها ايضاً انها خلقت لتفني حياتها لاجل حياة غيرها وتشقى لتوفر السعادة لاحبابها عبدالكريم العلاف من كتاب –قيان بغداد–).

يقولون ان في حياة كل رجل مهما كانت منزلته وعقليته فراغاً لاتملؤه الا امرأة نمت ونشأت في خياله واحبها عقله الباطن، وقد تمر في حياته الاعتيادية عشرات من النساء من دون ان يملأ ذلك الفراغ، فاذا جاءت المرأة المفضلة التي اختارها العقل الباطن امتلأ الفراغ فجأة فشعر الرجل بطمأنينة من يعثر على الماء في الصحراء.

ولقد ظل هذا الفراغ طويلاً في حياتي على ما ازدحم فيها من ألوان واليأس والقرب والبعد والاتصال والانفصال.

وفي القلب كما يقولون ايضاً سبعة اوتار ولكنها لاتهتز دفعة واحدة الا عندما يجد القلب تلك الانامل الرقيقة التي تضم هذه الاوتار للحظات او لساعات او لايام.

وقد مست (عفيفة) هذه الاوتار دفعة واحدة ذات مرة فرن في القلب ذلك الصدى المتناسق، الحبيب الى النفس ورف الطائر الحبيس منذ سنين طويلة حول الفراغ الكبير فاذا بي امام امرأة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1977)
السنة الثامنة
الخميس (2)
كانون الاول 2010

عفيفة إسكندر
لون خاص في الغناء العراقي

كامل الابيض

من نوع اخر لم اكن اعرفه من قبل.. امرأة جديدة بالنسبة لمن عرفت وقديمة بالنسبة الى الهوى الذي كان يعتمل في صدري نحو المرأة المجهولة او نحو من يملأ ذلك الفراغ الكبير الذي لايملؤه سوى المرأة التي عشقها العقل الباطن وتصورها على هواه.

ويوم جئت من كركوك الى بغداد باجازة قصيرة لم يكن في ذهني شيء عن عفيفة فلم تكن غير امرأة أوغير فتاة تمشي على نغمات القدر الذي ليس لها وليس لنا شأن في التحكم باهوائه.. ولم اكن انا ايضاً غير شاب متحمس للحب وللحياة بكل مافيها من مباهج وافراح وغصص والام وضاقت بي بغداد بيومين اثنين فكدت اعود ادراجي الى كركوك حيث اغرق بين الكتب ورياضة الصعود الى التلال، ولكن القدر امسك بي فجأة ليملأ الفراغ الكبير الذي لم تكن قد ملأته امرأة من قبل وقادت خطاي بشيء من التعسف المبهم نحو الملهى الذي كانت تعمل عفيفة فيه فالفيت نفسي بعد حين امام حالة نفسية غريبة، فقد انسلخت من عمري اعوام من التجربة في ساعتين لا اكثر.

كانت عفيفة يومئذ هادئة وناعمة وخائفة.. كانت اشبه بالارنب البري النظيف جيء به الى قفص غير مألوف، كانت تحاول ان تبتسم وان تكون طبيعية في حياتها الجديدة ولم يكن هيناً عليها فقد كانت في اخر ادوار المراهقة سهلة للكثير من المطامع والمخاوف معاً.

وكان لها يوم صعدت لتغني صوت عذب صاف يقطعه الخوف ويلجلجه التهيب.. ولا ادري كم كان قد مضى على اول ارتقائها خشبة المسرح الغنائي ولا التاريخ الذي مر على دخولها ذلك الوسط الجديد بالنسبة لحياتها الماضية تلك الحياة التي تمتلئ دائماً بكريات الطفولة وأماني المستقبل الذي كثيراً ما يملأ النفس بالخيبة حين يطيش حلم الزمان قلت لصديق كان معي يومئذ: سيكون لهذه الفتاة الضئيلة ذات العينين النرجسيتين شأن في حياة بعض الناس.

قال: وفي حياتك انت؟ قلت وانا اكتم ألمي: لا أدري.. على انها ستدخل في اكثر من حياة غالية وتستحوذ على اكثر من قلب كبير.

اول مطربة تغني القصيدة

والمطربة عفيفة تعتبر نتيجة لكثرة مطالعاتها للشعر، اول مطربة عراقية غنت الشعر وقدمت مايقارب (٦٠) قصيدة ولم تعرف مطربة عراقية اخرى غنت هذا العدد الكبير من القصائد.. لاسيما وان غناء القصيدة في الغناء العراقي يكاد يكون محدوداً جداً.. وقد غنت لاساطين الشعراء مثل (سناء الملك) و(البهاء زهير) وبشارة الخوري والشيخ علي الشرقي وطبقة الشعراء المحدثين.

وحسب معلوماتي فإن اول اغنية سجلتها للإذاعة عام ١٩٣٧ هي (برهم يابرهوم يابو الجديلة عذبت حالي وايدك طويلة) ثم اعقبتها باغنيتها الثانية (زنوبة) بعدها اتجهت في الغناء الى قطبي التلحين العراقي (صالح الكويتي وداود الكويتي) واشتهرت بسرعة بسبب رصانة صوتها وعذوبته واستحقت بجدارة ان تقف بمصاف اشهر مطربات ذلك العصر كزكية جورج وسليمة مراد وسلطانة يوسف وصديقة الملاية وزهور حسين.

وقد سافرت الفنانة عفيفة اسكندر الى خارج العراق كثيراً واحيت العشرات من الحفلات الغنائية في امريكا واوروبا ومصر ولبنان وسوريا والاردن.. ولكثرة حفلاتها وحلاوة صوتها وعذوبته فقد لقبتها الصحافة العربية (كالكواكب والاثنين) والمجلات اللبنانية (بمطربة العراق الاولى).

تقييم صوت عفيفة موسيقياً

عفيفة تستشير فضول الذاكرة الفنية لاصول الغناء دون ان تزودها بأي تفسير نفسي ومعرفي.. ففي هذا المحيط الفني يجول المغني وتتفحص الاذواق لذلك بقيت طريقة (عفيفة) في الغناء تحمل نزوعاً نحو التعلق الشديد او الرفض الشديد.. اذ انتقلت حنجرتها الفنية بين الغناء البدوي والغناء الحضري باقتدار وتمكن عجيبين.. وبكثير من دواعي الانشاد الحر غير المقيد..

وعفيفة تستحضر قواها الصوتية في ابراز الاسلوبية التي طبعت غناءها.. فهي تمتلك حضوراً مع تنوعات محدودة.. وتقيد صوتها بإعداد صارم بل تغني بلهجة عراقية مصحوبة باحتياطات حجازية وخليجية تارة اخرى مع اشهار التأثيرات البارزة في الغناء المصري..

وسر صوتها ينبيء عن دخول انتصار في مجال الغناء.. وفنها الادائي توفر على خاصيتين اساسيتين هما العبور الى الاسماع والاستيطان في الذاكرة.. وهذا بحد ذاته يعكس تألقاً للغناء الريفي.. وهو تألق يأتي على اية حال من كونه ينحدر من نوع بيئوي عراقي حميمي

المطربة عفيفة تعتبر نتيجة لكثرة مطالعاتها للشعر، اول مطربة عراقية غنت الشعر وقدمت مايقارب (60) قصيدة ولم تعرف مطربة عراقية اخرى غنت هذا العدد الكبير من القصائد.. لاسيما وان غناء القصيدة في الغناء العراقي يكاد يكون محدوداً جداً.

كان الغناء ساذجاً بسيطاً في بدء حياة الشعوب ثم تطور مع تطور البيئة الاجتماعية والثقافية المرتبط بها، والغناء تعبير عن الشعوب وطبائعها والاغاني الشعبية ترسم صوراً واضحة صادقة لحياة الشعوب الاجتماعية والسياسية والثقافية. وابرز مطربات الاغنية الشعبية في العراق المطربة الكبيرة عفيفة اسكندر وهي تمتلك صوتاً غنائياً مميزاً قدم لاسماعنا اجمل الاغنيات واعذب الالحان طوال اربعة عقود من الزمان وأكثرها ما زال خالداً في الاذهان وذكراها لم تزل نضرة وهي مطربة مثقفة ومحبة للشعر وتواقة للادب وكان مجلسها لا يخلومن المناظرات السياسية والشعرية والفنية والادبية حيث كان يضم كبار الادباء والسياسيين والفنانين. ولدت عفيفة اسكندر في الموصل عام ١٩٢٧ من أب عراقي مسيحي وأم يونانية وعاشت في بغداد وغنت وهي طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها الخمس سنوات، واحيت اول حفلة لها بعمر (٨)سنوات في اربيل. بدأت مشوارها الفني عام ١٩٣٥ في الغناء في ملاهي ونوادي بغداد وفي ارقى ملاهي العاصمة بغداد آنذاك مثل ملهى (الجواهري / الهلال / كباريه عبد الله / براديز) وكانت الملاهي سابقاً افضل من النوادي الاجتماعية. لقد استطاعت الفنانة عفيفة اسكندر ان تتعلم وتتأقلم مع اجواء الفن وبسرعة تحولت الي نجمة من نجوم الفن وكانت في حينها شابة جميلة وذكية غنت المونولوج باللغات: التركية والفرنسية والالمانية والانكليزية وعملت مع الفنانة الكبيرة (منيرة الهوزوز) والفنانة (فخرية مشتت) لقبت بـ(منلوجست) من المجمع العربي الموسيقي كونها تجيد ألوان الغناء والمقامات العراقية. جدير بالذكر ان اسكندر تنحدر من عائلة مثقفة فنياً، والدتها كانت تعزف على اربع آلات موسيقية وتدعي (ماريكا دمتري) وكانت والدتها المشجع الاول لها وكانت تنصحها دوماً بأن الغرور هومقبرة الفنان. تزوجت في سن مبكرة من رجل عراقي ارمني يدعي (اسكندر اصطفيان) وكان عازفا وفنانا قديرا ومنه اخذت اسم اسكندر. اول اغنية سجلتها للاذاعة عام ١٩٣٧ هي اغنية (برهم يا برهوم يابوالجديلة) ثم اعقبتها بأغنيتها الثانية (زنوبة) بعدها اتجهت في الغناء الى قطبي التلحين العراقي (صالح الكويتي وداود الكويتي) واشتهرت بسرعة بسبب رصانة صوتها وعذوبته واستحقت بجدارة ان تقف بمصاف اشهر مطربات ذلك العصر (زكية جورج وسليمة مراد وسلطانة يوسف وصديقة الملاية وزهور حسين) وقد تعاملت الفنانة الكبيرة مع مجموعة من خيرة رواد التلحين في العراق وقدمت العديد من الاغنيات الجميلة التي تشكل الآن ثروة كبيرة لتراثنا الغنائي، وابرز من تعاملت معه الفنان سمير بغدادي) وديع خوندة (، رضا علي، ناظم نعيم، كريم بدر، احمد الخليل، عباس جميل، ياسين الراوي، خزعل مهدي). كانت حريصة جداً في اختيار الفرقة الموسيقية المصاحبة لها في حفلاتها الغنائية، وكانت حفلاتها اسبوعية وتتضمن في كل حفلة (وصلتين) بحدود ساعة لكل وصلة غنائية، وتعاونت مع مجموعة من الموسيقيين ابرزهم الفنان (سالم حسين، خضير الشبلي، جمال سري علي آلة القانون، كريم بدر، كريكور برصوميان، جوزيف حنا، جميل بشير على الكمان، خضر الياس على الناي، وعلى العود الفنانان منير بشير وروحي الخماش. كما كان الفنان حسين عبد الله يشارك في حفلاتها كضابط ايقاع واشهر اغانيها (يا عاقد الحاجبين، ياسكري يا عسلي، اريد الله يبين حوبتي بيهم، قلب... قلب، غبت عني فما الخبر، جاني الحلو... لابس حلوصبحية العيد، نم وسادك صدري، ومن اغانيها ايضاً الاغنية الشهيرة يا يمه انطيني الدربين انظر حبي واشوفه، واغنية مسافرين، واغنية قسماً. يذكر ان اسكندر سافرت الي القاهرة عام ١٩٣٨ وغنت هناك وعملت لمدة طويلة مع فرقة (بديعة مصابني) وهي اشهر راقصة وممثلة مصرية في الاربعينات كما عملت مع فرقة (تحية كاريوكا) وشاركت في تمثيل فيلم (يوم سعيد) مع الفنان الكبير الراحل محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة، ومثلت في افلام اخرى في لبنان وسوريا ومصر منها (القاهرة بغداد) اخراج احمد بدرخان، وفيلم (ليلى في العراق) اخراج احمد كامل مرسي. ثم تعرفت على الاديب المازني والشاعر ابراهيم ناجي وحينذاك بدأ مشوارها الادبي ثم عادت الى العراق واستقرت في بغداد. كانت المغنية الاولى في العصر الملكي وكان كبار المسؤولين في الدولة العراقية يطلبون ودها ويطربون لصوتها ويحضرون حفلاتها، اذ كان الملك فيصل الاول من المعجبين بصوتها وكذلك نوري السعيد رئيس الوزراء الاسبق وكان عبد الكريم قاسم ايضاً يحب غناءها ويحترمها لكن عبد السلام عارف كان يحاربها. وهي الآن رغم كبر سنها وضعف بصرها تعاني امراض الشيخوخة... جدير بنا انصافها كونها رائدة من رواد الغناء العراقي الاصيل الذي لا ينسى وبالتالي فإن عفيفة اسكندر لون فريد في الغناء لا يضاهيه اويقترب منه اي لون من ألوان الغناء العربي.

عفيفة إسكندر... سيدة الغناء العراقي

وفـــــات قـــطـــار الـــــزواج

لأن اللقاء مع الفنانة عفيفة اسكندر شبه مستحيل بسبب اعتكافها وامتناعها عن اللقاءات الصحافية فقد اخذنا نبحث في (الدفاتر العتيقة) عن لقاءات صحافية لنتعرف على آراء عفيفة في الحياة الفنية.

جريدة «الجمهور» اللبنانية اجرت لقاء مع عفيفة نشر في ٢٢ اغسطس ١٩٦٣ بعنوان «كروان العراق تتمنى ان تكون صحافية» جاء في اللقاء:

×كم اغنية عملت هنا؟

– سجلت سبع اغان جديدة واستغرق وقت اعدادها وانجازها بحدود خمسة اشهر.

×وهل الامور كانت مشجعة؟

– مع الاسف الاجور جدا ضئيلة،،، واتمنى ان تعدل حسب مكانة الفنان.

×بماذا تعرفين الفنان؟

– الفنان الحقيقي هو وجه البلد الصحيح واداة اعلامية جيدة.

×هل ستركبين قطار الزواج؟

– لقد فاتني القطار قبل ان اصله،،، ولم ألحق به.

×ماذا عملت في سفرتك الى اوروبا وما هي انطباعاتك عن الفن الاوروبي؟

– قدمت مجموعة من الاغاني العراقية في باريس وسان فرانسيسكو وغنيت «قطعات» غنائية عباسية واموية واندلسية في تلفزيون «بي بي سي البريطانية» وقد وجدت الفن والذوق الاوروبيين في غاية الروعة والابداع. اتمنى ان اصبح صحافية

ولو عرض عليك ان تذهبي الى اوروبا للعمل هناك؟

– لا اقبل بذلك لانني اشعر ان بلادي هي قطعة من جسدي.

ما هو املك في الحياة؟

– احب ان اصبح صحافية،،، ولو وفقت سأصدر مجلة اسبوعية تضم مختلف المواضيع والابحاث.

وقد سئلت عفيفة ذات مرة عن احب اغانيها الى نفسها فقالت بلا تردد اغنية «حركت الروح».

لا تحب الشعر الحر

×ومن هو احسن كاتب لديك؟

– هناك مجموعة من الكتاب ابرزهم ستيفان زمايغ وتشارلز ديكنز وجان جينيه ومن الكتاب العرب العقاد والمازني ومن الشعراء العباس بن الاحنف.وعفيفة لا تفضل القصة على الشعر لانها حسب وصفها، محاولة لتجديد المعلومات وهي تدعي انها لم تفهم الى الان معنى واحدا لقصيدة واحدة من الشعر الحر! ولكثرة عشاق صوتها وشهرتها الواسعة فقد حزن الكثيرون عندما سمعوا عام ١٩٦٣ نبأ من اذاعة لندن عن وفاتها اثر عملية جراحية اجريت لها في باريس.

لكن النبأ كما اتضح بعد وقت قصير نبأ غير صحيح وانه مجرد اشاعة غير ان هذه الاشاعة اثبتت ان للفنانة عفيفة آلاف المعجبين الذين تألموا كثيرا وحزنوا لذلك الخبر.

وكانت عفيفة في باريس فعلا، وعندما سمعت بالاشاعة اسرعت بالعودة الى بغداد لتكذيب الخبر في الصحافة والاذاعة والتلفزيون وامام جمهورها.

العلاف: بدأت راقصة

كما كتب الاستاذ عبدالكريم العلاف في كتابه المعروف «قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني» الصادر عن منشورات دار البيان ببغداد عام ١٩٦٩ الطبعة الاولى، يقول العلاف عن عفيفة اسكندر: «هي قلب الجمال النابض اودعت يد القدر فيها اوصافا بدنية وخلالا نفسية فهي لا تستطيع ان تخفي محاسنها، بل تبدت وتجلت في اكمل جمال في نظر عشاق الجمال، جمال ساحر من صنع الخلاق لا صنع الحلاق لم تجد فيه شذوذا، ولابعدا عن الحقيقة المجردة من كل تقليد وكل مايشين كانت اعز احلام عفيفة وامانيها ابان طفولتها ان تكون مغنية لا راقصة والرقص الفني (البيزنطي) ترثه عن امها (ماريكة دمتري) ظلت عفيفة رغم صغرها والبيئة الصغيرة التي نشأت فيها تعلل نفسها بتلك الاماني حتى هيأ الله لها احد المشاهير الموسيقيين فحدثته عن امانيها وما يلم بخاطرها واستشف الرجل من حديثها رغبة قوية فيما تصبو اليه، فقلت لها بصدق واخلاص كوني راقصة تكوني مغنية فالرقص والغناء صنوان لاينفك احدهما عن الآخر ففكرت طويلا وخالت مايكون من امرها اذا هي احجمت ثم ما يكون اذا هي تراجعت؟ وفي هذا التفكير العميق اختارت سبيل الرقص اولا، على حد قول الشاعر «واول الغيث قطر ثم ينهمر» وراحت تخترق كل العقبات التي تحول بينها وبين امانيها فأخذ ذلك الرجل يرعاها ويبذل قصارى جهده في تعليمها تعليما فنيا محكما حتى نضجت وبدت علائم الفوز والنجاح تبدو على محياها فأعانها مرشدها واستاذها فضمها الى «ملهى الهلال» واندفعت ترقص فكان لرقصها رنة استحسان مما شجعها على الاستمرار فيه كل ليلة وما فتئت حتى انطلق صوتها من اعماق قلبها بأغان شائعة يومذاك فاحسنت فيها واجادتها وظلت هكذا حتى اعتلت كرسي الاذاعة فراحت تنثر درر اغانيها فتشنف آذان مستمعيها وكلهم آذان صاغية اليها وفي هذا الاقبال والفوز المستمر التفتت الى ما ينظمه النظامون اليها من الشعر الشعبي فاستطاعت بفضل نباهتها ان تميز بين الغث والسمين وكانت تختار الذي يروق لها ويوافق ذوق ابناء الشعب وهذه بادرة طيبة قلما توجد عند بعض القيان اللواتي عاصرنها ولما شعرت ان الشعر الشعبي لايفي بمرامها ركنت الى الشعر الفصيح فاتخذت شعر البهاء زهير رائدا لها وراحت تتغنى به فكان نصيبها الفوز والنجاح.

ويضيف العلاف: «وأهم شيء في طبيعتها انها تكره ان تنال شيئا مقابل ماتجود به وقد شاءت طبيعتها ان يكون العطاء ديدنها وان كانت معسرة،،، هذه هي عفيفة فهل تراني انحرفت عن الحقيقة؟ لست ادري»!!

ولم يشر المؤلف الى اسم الرجل الذي اخذ بيد الفنانة عفيفة اسكندر الى الغناء والفن لكن «ملهى الهلال» كانت تديره المطربة سليمة مراد آنذاك واشتغلت فيه راقصة «ماريكة دمتري» ام الفنانة عفيفة اسكندر وكان هذا الملهى باسم «ماجستيك» انشئ بعد احتلال بغداد في منطقة الميدان كما حال بقية الملاهي وظلت هذه الملاهي تشتغل في الميدان الى عام ١٩٤٠.

قد زارتني في الاستديو الخاص بي - يقول باك - مع السيد كريم بدر عازف الكمان المعروف ومدير شؤونها الفنية لغرض التقاط صورة جديدة لها، وبعد ايام عادت لتسلم الصورة التي كبرتها بحجم كبير (شيت) ووضعتها في المحل جنبا الى جنب صور السيد مؤيد البدري المعلق الرياضي المشهور!

حازم باك مجنون عفيفة

اما المصور الصحافي حازم باك فيقول لقد تعرفت عليها في الخمسينات ابان اشتغالي كمصور صحافي في جريدة الشعب حين ذهب اليها مع القاصة الفلسطينية الراحلة (سميرة عزام) لاجراء لقاء صحافي معها فزرناها في بيتها بالمسبح وبعد ترحابها بنا قادتنا الى التعرف على نواحي الجمال في منزلها.

شاهدنا الاثاث الفاخر والديكورات الرائعة التي تنم عن ذوق جميل وشفاف وفي احدى الغرف كانت آلة البيانو تستقر هادئة تشعر كأن الانغام تنبعث منها لتجعل النفس مطمئنة ،ومنشرحة وفي مكان اخر وجدنا المكتبة التي تستقر فيها مئات الكتب،،، وقد كانت كتب الشعر هي المميزة من بينها، لاسيما ان عفيفة كانت مغرمة بالشعر وفي زاوية اخرى انتصب جهاز التلفزيون شامخا (علما ان قلة من بيوتات بغداد كانت تمتلك مثل هذا الجهاز آنذاك) وكان يرافقنا في جولتنا داخل المنزل كلبها وحارسها العزيز

وقد زارتني في الاستديو الخاص بي – يقول باك – مع السيد كريم بدر عازف الكمان المعروف ومدير شؤونها الفنية لغرض التقاط صورة جديدة لها، وبعد ايام عادت لتسلم الصورة التي كبرتها بحجم كبير (شيت) ووضعتها في المحل جنبا الى جنب صور السيد مؤيد البدري المعلق الرياضي المشهور! وحين لمحت عفيفة صورتها مع صور المحل في الداخل اعجبت بها كثيرا ودفعت تكاليفها بالرغم من عدم اتفاقي معها حول ذلك وطلبت مني ابقاء الصورة معلقة في مكانها، وفي احد الايام خطر ببالي نقل الصورة الى واجهة المحل الامامية وفعلت ذلك فعلا وبعد ذلك كان يأتي رجل في الاربعين من عمره ويبدو انه غريب الاطوار يقف امام صورتها يتطلع اليها يوميا وفي نفس الموعد وفي يوم ما ادخلت الصورة الى داخل المحل وعندما جاء في اليوم التالي ولم يجدها اقتحم المحل في نفس موعده وهدد وتوعد اذا لم تعد الصورة الى مكانها وخرج لايلوي على شيء ونزلت عند رغبته واعدت الصورة الى واجهة المحل ومن يومها اصبحنا نسميه «مجنون عفيفة».

الحزن في ملامحها

اخيرا يقول المصور باك: «ان عفيفة فنانة خفيفة الظل تجمع ما بين حلاوة الصوت والصورة، وهي من القليلات من المطربات العراقيات اللاتي يملكن هذه الصفة المزدوجة، اضافة الى ذلك كانت مجاملة كثيرا وحساسة جدا، ويظهر الحزن على محياها الجميل بوضوح.

جريدة الجمهور 22 آب 1963

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين

التصميم: نصير سليم

الغلاف برؤية: علاء كاظم

التصحيح اللغوي: عبد العباس الأمين

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون

عندما تحولت عفيفة إسكندر إلى صحفية

بغداد/ من مندوب الكواكب الخاص

اختارت مجلة الكواكب المصرية المطربة عفيفة اسكندر لتجري حوارا مع الممثلة العراقية عزيمة توفيق ننشر نص الحوار اختارتهما "النقطة الرابعة" الاميركية للسفر الى هوليوود لتمثيل فيلم قصير عن العراق.. واختارتهما "الكواكب" للاجابة على اسئلة كل منهما للاخرى.

عفيفة: ارجو ان تجيبي على الاسئلة بسرعة وبدون تفكير!

عزيمة: ولماذا لا اكون انا السائلة وانت المجيبة؟

عفيفة: لا... انا في الاول!

عزيمة: طيب يا ستي... تفضلي!

عفيفة: عمرك كم؟

عزيمة: (وهي تغني) سؤال غريب ما جاوبش عليه!!

عفيفة: ليه؟

عزيمة: (وهي تغني ايضا) كده كده... انا طبعي كده!

عفيفة: انا اريد اجوبة.. لا الدخول في قافية الاغاني..

عزيمة: حاضر!

عفيفة: وليه عملت ارتست؟

عزيمة: قضاء وقدر..

عفيفة: ولو لم تكوني "ارتست" ماذا كنت تتمنين ان تكوني؟!

عزيمة: بردو ارتست!

عفيفة: ولماذا؟

عزيمة: لانني خلقت في جو فني ونشأت والفن في دمي، ثم احب الفن واهل الفن ومجالات الفن!

عفيفة: هل مثلت في السينما قبل الآن!

عزيمة: نعم... مثلت الدور الاول في اول انتاج سينمائي في العراق وهو فيلم "عليا وعصام".. هل تذكرينه؟!

عفيفة: لكن هل تعتقدين انك نجحت؟

عزيمة: نجحت محليا!!

عفيفة: وهل تعتقدين انك تنجحين في هوليوود؟

عزيمة: هذا ليس كثيرا على الله!

عفيفة: وهل تعودين الى العراق اذا سافرت الى هوليوود؟

عزيمة: طبعا ارجع.. هل سمعت ان انسانا لا يحب ان يرجع الى وطنه مهما طال عليه الزمن؟

عفيفة: واذا طلبت الشركات السينمائية منك الا تعودي؟

عزيمة: لوقتها فرج!

عفيفة: ما اول اغنية لك؟

عزيمة: والله ماني فاكرة!

عفيفة: واحب اغنية الى قلبك؟

عزيمة: يا ولد يا اسمر يابو شامه!

عفيفة: أي المغنين المصريين تحبين ان تسمعي؟!

عزيمة: طبعا ام كلثوم ومن الرجال كارم محمود!

عفيفة: ومن تحبين من الممثلين؟

عزيمة: زكي رستم وعباس فارس ثم معبودتي الفاتنة فاتن حمامة!

عفيفة: اي نوع من الرجال تفضلين؟

عزيمة: الرجل القوي الشديد!

عفيفة: ولماذا لم تتزوجي حتى الان؟

عزيمة: ايه؟ انت فاكراني كبيرة في السن.. انا عمري عشرين سنة بالتمام والكمال!

عفيفة: وهذا عز الزواج..

عزيمة: طيب انا اقدر اسألك نفس السؤال لماذا لم تتزوجي حتى الان؟

عفيفة: انا متزوجة فعلا

عزيمة: متزوجة؟ ممن؟

عفيفة: الفن!

عزيمة: بالضبط.. وانا تزوجت الفن ايضا!!

عفيفة: عال.. يعني احنا ضراير..

(وهنا امسكت عزيمة القلم والورق وبدأت تسأل)

عزيمة: وانت عمرك كم؟

عفيفة: قديمة..

عزيمة: طيب ونفسك في ايه؟

عفيفة: نفسي اوصل لهوليوود والسما زرقا!!

عزيمة: وهل سبق ان مثلت في السينما؟

عفيفة: نعم.. في فيلم "القاهرة – بغداد" مع مديحة يسري وحقي الشبلي..

عزيمة: وهل نجح الفيلم؟

عفيفة: طبعا لا... لو نجح لمثلت فيلما ثانيا وثالثا وعاشرا ايضا ولكن ايش نعمل في البخت والنصيب!!

عزيمة: معليش يا اختي شدي حيلك!

عفيفة: انا شديته من زمان!

عزيمة: وهل تعتقدين انك ستنجحين في هوليوود؟

عفيفة: وصليني الى هناك اولا ثم اسأليني!!

عزيمة: ما اشهر اغنياتك؟

عفيفة: في مصر اغنية "عمي يا بياع الورد"!!

عزيمة: وفي العراق؟

عفيفة: برضة "عمي يا بياع الورد"!

عزيمة: هل تحبين النكت؟

عفيفة: طبعا...

عزيمة: هل تسمحين وتذكرين لنا النكت التي سمعت بها اخيراً؟

عفيفة: ذاكرتي ضعيفة لا احفظ شيئاً...

عزيمة: طيب، وما اعز امنية لديك؟

عفيفة: ان تقفلي الاسئلة والاجوبة، وتروحي بيتكم بقى!!

(وقامت عفيفة توصل زائرتها الكريمة مودعة اياها بالتمنيات الطيبة)

مجلة الكواكب - 1-3 1956

عفيفة .. غني لنا

علي حسين

شغلت المطربة عفيفة اسكندر الأوساط الفنية والثقافية في بغداد، لسنوات طويلة، فهذه المرأة المسيحية التي دخلت الإذاعة العراقية عام ١٩٣٧اصبح اسمها بين ليلة وضحاها على كل لسان،، كان السحر عند الناس آنذاك هو الراديو. لقد استحوذ الأثير المغني على البيوت.

جاءت هذه البنت من أربيل الى بغداد، صبية تحلم بعالم من الشهرة والأضواء، كان عالم بغداد جميلاً ومختلطاً وملوناً، ففي هذه المدينة، تحمل الشوارع المضاءة اسماء ملوك وشعراء وأمراء، أشهرها الرشيد.، فهنا أنشأ تاجر مسيحي أشهر المحال "حسو اخوان" وافتتح مسيحي آخر أشهر ستوديو للصور " ارشاك "،. وفي هذا الشارع ينشئ مسيحي آخر أشهر فندق " دجلة بلاس " في هذه المدينة التي تتطلع الى المستقبل بعيون مفتوحة علقت الشواهد على شوارعها الرئيسية، الملك فيصل، المتنبي، ابو نواس، الأمير غازي، ابن سينا.تلك، كانت بغداد في الثلاثينيات. والقادمون يأتون من قريب ومن بعيد. يغنون. ويعشقون، ويحلمون بيوم يصبحون فيه أبطالاً، قادرين على العيش برفاهية، وعلى الحصول على جهاز راديو، طراز "سيرا " او "باي"، يغني لهم من داخل البيت، بدلا من اسطوانات جقماقجي وبيضافون. في البيت الذي سكنته عفيفة اسكندر في كرادة مريم كان المذياع يصدح بأغنيات سليمة مراد ومنيرة الهوزوز وزهور حسين والقبانجي، وكانت تمضي أكثر الوقت،، من اجل ان تسمع ما تحب.

الإذاعة نفسها، "إذاعة بغداد "، كانت على بعد خطوات من البيت الذي سكنته عفيفة، وسوف تغامر ذات يوم،، بالذهاب صوب الإذاعة، وتطلب من فؤاد جميل مدير الإذاعة آنذاك أن تغني، ولكن من سيلحن لها الأغنية؟لم يكن غير اليهودي العراقي صالح الكويتي الذي كانت أصوات المطربات تنتظر عند عتبة بيته. غنت فأطربت وقبضت أعلى اجر تأخذه مطربة آنذاك وهو دينار ونصف الدينار دفع لها من أموال الجباية التي تأخذها الإذاعة نظير تقديم برامجها لمن عنده جهاز راديو، فحين أنشئت الإذاعة عام ١٩٣٦ اعترضت وزارة المالية على المبالغ المخصصة لعدم وجود تخصيصات مالية لمثل هكذا مشاريع، فتفتق ذهن البعض عن فرض رسم بمبلغ ربع دينار سمي برسم الراديو يؤخذ من أصحاب المقاهي والمحال والبيوت التي تضع هذا الجهاز و هكذا نشأ جيش من الجباة بزي موحد يجوبون المقاهي والمحال و يطرقون ابواب البيوت و يتنصتون على الناس من خلف الشبابيك قائلين:عدكم راديون و يكون الجواب لا يابة عدنة قبول".

نحن هنا في" الاذاعة اللاسلكية العراقية "، صالح الكويتي، فنان متقشف، منضبط، حزين المعالم. وفي بغداد التي يأتي إليها الحالمون وأصحاب المواهب، حيث يصنعون لها مجدا يطرزونه حول عنقها الجميل مثل عقد من الخرز الملون يصغي صالح الكويتي الى البنت المسيحية الجميلة الملامح، الفارعة الطول ويقول لها، بأسلوبه المتقشف، دون شيء من ابتسامة: "عفيفة " اسم سيعني الشيء الكثير وسوف تكونين النغم الجديد في هذه الإذاعة ".

وبأمر من المترجم والأديب الأنيق فؤاد جميل، بدأت عفيفة الرحلة نحو الأسطورة، ولم تكن تدرك أنها سوف تصبح ذات يوم نجمة بغداد المشعة، وسوف تصبح نوعا لا يقلد من الغناء، لا قبل ولا بعد. فمعها، ومع الأغنيات القصيرة البسيطة التي تشدو بها سوف يتغير جوهر الأغنية العراقية، وسوف يأتي إليها الملحنون والشعراء الذين كانت تحلم ان تلتقيهم يوما ليسألوها: عفيفة هل تقبلين ان تغني لنا؟، ولتصبح امرأة أخرى من قوم عيسى تأسر القلوب والأسماع، وقبلها أسرت شقيقة لها قلوب كل العراقيين:

سمراء من قوم عيسى من اباح لها
قتل امرئ مسلم قاسى بها و لها
رأيتها تضرب الناقوس، قلت لها
من علم الخود ضربا بالنوى قيسي